معتز عرفان

رواية قصيرة

فيلسوف وفتاة

دار عرفان للنشر

معتز عرفان

فيلسوف وفتاة

دار عرفان للنشر

فيلسوف وفتاة (رواية قصيرة)

-1-

"ربما يمثل الصراع الذي نشب بين قابيل وهابيل الصراع الأول في التاريخ، نعم، ذلك الصراع الذي شب من أجل امرأة، من أجل امرأة. من هنا بث التناقض، من هذا الموضع تسلل الاضطراب، ومن هذه النقطة بدأت الحركة. لكنها حركة مفعمة بالتوتر، ذلك التوتر الوجودي النابع من الوجود في حد ذاته، ذلك التوتر الذي يحاول الإنسان أن يقلل من وطأته عبر اللجوء إلى مصادر الترفيه والتأمل والروحانية الدينية، وفي أحيان كثيرة قد يلجأ إلى عناصر الهروب التي قد تمكنه من إدراك تأثيرات غريبة يظنها للوهلة الأولى ذات صلة بالروحانية، لكنها سرعان ما تكشف عن ماهيتها وحقيقة أنها مؤقتة ومهلكة. في الحقيقة، لا ينجح الإنسان في الهروب من التوتر الوجودي، لأنه يلازمه ويرتبط بحركته، بل والأكثر غرابة يكمن في إمكانية أن يقترن بسكونه. وتبقي الروحانية الدينية الطريق الأمثل في نهاية المطاف، لكن بلوغها يحتاج إلى مجهود كبير، وغالبا ما تبلغ حينما يشيب المرء وحينما يدرك الحقيقة التي لا مناص من بلوغها والتعرف إليها. فللوهم لذة، لذة يجب أن تعاش، لكن الحكمة تكمن في أن يعيش المرء حياته دون أن ينسى ما يتوجب عليه فعله، دون أن يتجاهل حقيقة أنه لا مفر من أن يضع نهايته نصب عينيه، لعلها تساعده على التجاوز عبر التخلي والمرور عبر السلوان."

كنت أتأمل لحيتي البيضاء التي تسللت تأثيرات الزمان إليها، بينما كنت أحاول أن أنصت إلى ما يبثه المذياع من كلمات غريبة لا تناسب الكثير من العقول التي تعيش حياة متكالبة متسارعة تعمد إلى المظاهر الخداعة واللهث وراء الماديات

والشهوات. ورغم ذلك من الممكن أن نجاري شهواتنا عبر توظيفها في الموضع الصحيح ومن المتاح أن نوازن بين التكالب والسكون، بين التحرك والهدوء، بين التشاحن والسكينة.

كنت أحتسي قهوتي اللذيذة، كانت قيادتي سريعة، كانت الأفكار تلاعبني وكانت قهوة المثقفين تساندني، تلك القهوة التي اعتدنا أن نربطها بالقراءة، اعتدنا أن نبالغ حينما نتحدث عنها كما نبالغ حينما نتحدث عن كل شيء، عن كل سراب.

السيارة تهرع دون توقف، عجوز مجنون يحاول أن يسرق بعض اللحظات التي قد تساعده على تذكر شبابه، السماء على وشك أن تصب الماء، والبرودة تكاد أن تلقي بهذا العجوز إلى التهلكة.

الكثير من المشاهد تتسلل إلى ذهني، أتذكر تلك الجولات التي حال الشيب بيني وبينها، تلك الجولات الشبابية الخاصة بالفتيات، فالعجوز الذي يحب الخيول، يعاني من ومضات الماضي الذي ولى، وينال منه الأسف كلما تذكرها، ويشعر بأن هناك ما يفوته، رغم أنه لا يفوت المرء حقا سوي الإكثار من التجليات الروحانية.

في شبابي، كنت محبا لتأمل الخيول والغزلان، كنت حارسا لعزلتي، وكنت أنظر إلى كل ما يحوطني على أنه لا يمثل سوي الشر، رغم أنني لم أكن شريرا بأي شكل من الأشكال، فقد كنت أتمنى الخير والرحمة لكل الناس، ورغم أنني كنت حادا مع نفسي ومع المقربين إلى حينما كنت أتحدث عن الكثير من النقاط والثوابت، وكنت شرسا حينما كنت أخالفها، إلا إنني

كنت متفهما لطبيعة النفس البشرية، تلك الطبيعة التي تحتاج إلى الموازنة بين اللين والشدة، منعا للانحراف أو التشدد.

حينما تفهم كل شيء، ستبكي بشدة، فالحقيقة تخبرنا بأنك مطالب بالتقليل من الجري وراء السراب، رغم أن العقل بداخله ما يخبره بضرورة أن يسلك النقيض، ورغم أن المادية الشرسة قد نالت منا وسيطرت علينا، فهبطت الأخلاق إلى مستويات منخفضة وصرنا نعبث داخل المتاهات.

لكنني أري أن اللجوء إلى الإله بمثابة المخلص لنا، وحسن الظن بمثابة الطريقة الوحيدة من أجل التقدم إلى الأمام. لقد رأيت دائما أن العقل بداخله مسارات تهدف إلى الإرضاء، فمنها مسار يسعي نحو استجلاب أحوال العظمة، ومنها مسار يشعرك بأن كل من حولك لا يمثلون سوي الأوغاد والمتربصين، وهناك مسار غريب يسعي نحو استجلاب أحوال الغرور والتعجرف والإحساس بأن النفس لا مثيل لها وأنها منزهة عن كل خطأ، وهو ما يمثل الوهم البشري بكل تأكيد.

فمسايرة هذه المسارات، أمر خطير، نعم، فلن تشعر بتأثيراته إلا حينما تعجز عن مسايرتها، حينما يحول الشيب بينك وبين متابعة ما كنت تلهث وراءه في الماضي.

فإن أردت أن تستجلب أحوال العظمة، اذكر الإله، ولا تذكر كائنا فانيا، وإن كنت تشعر باستمرار بأن هناك من يتربص بك، فاعلم أن هذا المسار قد وجد ليخبرك بحقيقة أن اللجوء لا يكون إلا إلى الإله، أما الغرور، فعليك بالحذر منه، فإنه لا يمثل سوي الوهم والمحفز الأول للخطايا والتكالب.

كنت أتنقل بين هذه الأفكار دون أن أشعر بالرغبة في التوقف، كانت تلاعبني بسرعة تضاهي سرعة سيارتي، وربما كانت قادرا على التفوق عليها في الكثير من اللحظات.

وبينما كنت مندمجا مع محاولتي تحقيق التوازن بين الشقين، تلك المحاولة التي كثيرا ما كانت تبوء بالفشل، ظهرت لي فتاة جميلة، ظهرت حينما كانت سيارتي قد شرعت في استجلاب أحوال الهدوء والتمهل.

رمقتها فرمقتني، رمقتها مجددا فرمقتني مجددا، لمحت ملابسها الأنيقة، أعجبت بثوبها القصير المزين بعباد الشمس، وسألتها عن وجهتها.

قفزت إلى داخل السيارة، قفزت بعد أن أزاحت كتبا كانت ترافقني، قفزت كما تقفز الغزالة محاولة الكشف عن تحركاتها العبثية.

أخبرتني بأنها طالبة بالجامعة، وأنه اليوم الأول بالنسبة إليها، وقد وضحت إليها بأنني أدرس الفلسفة للطلاب في نفس الجامعة، وهو ما نقلنا إلى بيئة مفعمة بالدفء والجمال، حينما حدثتني بأن الفلسفة محور دراستها وأكبر همها.

كانت رقيقة جميلة، تشعرك بأن الجين الأنثوي لم يتدهور بعد، ذلك الجين الذي نال منه ما نال، نعم، فقد كانت تشبه ممثلة فرنسية أنيقة من زمن فات، فلطالما كنت محبا لممثلي وممثلات السينما، وكثيرا ما كنت أتحدث عنهم وعنهن، حتى أنني قد اتهمت في الكثير من الأوقات بأنني كنت مرفها لا

يحب سوي الخيال، رغم أنني كنت دائما ما أرصد الواقع والحقيقة عن كثب وأعبر عنهما دون خجل أو مخادعة.

فقد أخبرتني زوجتي التي التهمها التراب في أكثر من مرة بأنني لم أكن سوي مراهق لعين لم يتمكن من التخلص من تأثيرات ماضيه ومراهقته وهوسه بالسينما، رغم نيل الكبر مني ورغم كثرة المسئوليات، تلك المسئوليات التي تحملتها من أجل ابني الوحيد الذي أخذ ما أخذ ثم هرب بعيدا عني من أجل العمل في الخارج.

في الحقيقة، نالت مني بعض عناصر الهروب واللهو، لكنني أقلعت عن كل شيء في الآونة الأخيرة، بعد أن وجدت أن ما كنت أفعله لم يكن مناسبا لسني. ورغم أنني كنت أخبر نفسي دائما بأنني لست بشرير، وبأن ما أفعله يخصني وحدي ولا يضر أحدا غيري، إلا إنني قد اكتشفت فيما بعد أن اللهو البعيد عن المسار الصحيح محرم، لأنه يرضي الغرور ويمنح الإنسان إحساسا قويا بنفسه يجعله عاجزا عن التواضع والاقتراب من الإله.

إنها تلك النغمة المعروفة، تلك النغمة التي تخبرك بأنك طيب طالما أنك لم تؤذ أحدا، لكنك في حقيقة الأمر تكون حينها قد أذيت نفسك، ونفسك ليست ملكك، وغرورك بمثابة الطريق المباشر للهلاك، الهلاك النفسي قبل كل شيء، لأنك حينها تكون في طريق يحاول أن يقف أمام التيار، ذلك التيار الذي لا مناص من الاستسلام أمامه في نهاية المطاف، مهما كانت محاولاتك أيها الإنسان الجهول الظلوم.

ولهذا فقد قررت أن أقطع دابر هذه النغمة، وأسرعت بالعودة إلي رشدي، وحتى لو كانت هناك العديد من الكلمات العبثية التي كنت أتلفظ بها بين الحين والآخر، إلا إنني كنت على يقين بأن رحمة الإله الواسعة لا مناص من أن تشملني إذا أراد عز وجل ذلك.

لم أكن مدركا لحقيقة أن الكلمات كانت تخرج من فمي في انسيابية وتسارع، بينما كانت الفتاة متعجبة من أمري، وقد أخبرتني بأنني قد تحدثت عن الكثير من النقاط التي لا تربطها صلة، فأخبرتها بأنها طريقتي منذ صغري، فقد اعتدت التنقل بين الموضوعات في عشوائية كنت أعجز شخصيا عن فهمها في الكثير من الأحيان، إلا إنها كانت بمثابة العلامة المميزة لشخصيتي والتي ساعدتني على الخوض في الكثير من النقاشات الحيوية مع أقراني، حينما كنت محبا للاجتماعية التي لا غني عنها في سابق عهدي.

غزالة تتأملني، غوريلا تتحرك بداخلي وتشعل نيراني، غدد تفرز موادا يمكن لعقل حكيم أن يجابه تأثيراتها، تلك التأثيرات التي كثيرا ما كنت أرمز إليها بشيطاني، فرغم وجوده المؤكد، إلا إنه في هذه الحالة رمز تدعمه دواخل حيوية يطول الحديث عنها.

عينان تتأمل عباد شمس بجنون، لكنني أكثر جنونا، ورغم ذلك ها هو ضميري يكبح ما يجب كبحه، ويخبر كياني بأن اللحظة لذيذة لكن التبعات غريبة، تبعات لا تمثل سوي طاقتين، إحداهما إيجابية والأخرى سلبية. فاللذة مقترنة بألم، إذا وضعت في غير محلها، لكن الألم لا يشعر به إلا بعد وقت محدد.

الشمس تضيء الوجود، ووجوم يسيطر علي كياني، وقد نزلت الطارقة بعد أن تتبع العقل السراب، لكن الفتاة كانت مبتسمة، وقد أظهرت ما لم يكن في الحسبان، فقد عرفت الكثير من الشبان في الماضي، تعرفت إليهم في الحقيقة وعبر انستجرام، لكنني لست بحبيبها لأسألها عن الماضي، بل إن الماضي ميت حتى مع الحبيب، فلو سأل عنه، أصابه الجنون وبطلت العلاقة في ظرف لحظات، ولو سألت هي الأخرى، نال منها التوتر والاضطراب، بل إن الدين يخبرنا بأن ما ولي قد ولي وبأن رحمة ربك واسعة وستره عظيم. ورغم ذلك، لا تؤخذ الرحمة كدافع للاستمرار بل تؤخذ كدافع للانقطاع، وعلى المخطئ أن يعترف بخطئه أمام نفسه لعله يصلحها في سرعة ودهاء.

أحسست بأنني بطل من أبطال قصص كاتب كان يقحم شخصيات مخطئة تمنح النصائح رغم مخالفتها لمضمونها، لكنني كنت علي علم بأنه كان يستخدم طريقة جديدة في النصح، فلا يقدم شخصيات تقليدية مستقيمة، بل يعمد إلى شخصيات مضطربة دونجوانية يسيطر عليها الندم والاختلاج، رغم أنه كان دائما ما يوضح في كتاباته أن الندم ممرض، وأن التجاوز والتقدم إلى الأمام بمثابة المفتاح.

لم تظهر الفتاة أي ملمح من ملامح الاضطراب، وقد نزلت من السيارة وغادرتني بينما كنت مفعما بخليط من الهراء والنشوة، لكنني أخبرت نفسي بأن ما حدث لا يمكن أن يزورني مجددا، فقد اقترب موعد رحيلي.

وبينما كنت متجها ناحية قاعة محاضراتي، وجدت فتاة ترمقني في ابتهاج، وقد اقتربت مني وأخبرتني عن حبها لكتيباتي، تلك الكتيبات التي كنت أنشرها باستمرار.

رحلت الفتاة الأولي، رحلت ورحل معها كل شيء، ووجدت سياقا غريبا وضعني القدر فيه، فقد صرت صديقا عجوزا لطالبة جديدة كنت بالنسبة إليها بمثابة الكاتب والأستاذ، لكن ما لم تدركه في البداية كان كامنا في عشوائية عقليتي المتأصلة.

كنت أدرس لها، وكانت تتأملني محاطة بزعزعة وانتفاض، لكنني لم أكن فتنة واضحة بالنسبة إليها في بادئة الأمر ولم تكن هي الأخرى فتنة بأي شكل من الأشكال.

كانت ترافقني في سيارتي، وكنت أعاملها كابنة ضالة في حاجة إلى رعاية، وفي نفس الوقت كنت أمنحها الكثير من الدرجات لذكائها وجمالها الخلاب.

لطالما أحببت أن أقحم الكثير من الموضوعات في محاضراتي، فلم تكن تقتصر على الفلسفة، بل كانت خليطا من موضوعات عديدة وأفكار غريبة وتنقلات سريعة، لكن الطلاب كانوا يعشقونها، وكانت طالبتي المليحة بمثابة المحفز لهرموني، هرموني الفني، فاعذروني.

أخبرت طلابي بالكثير من النقاط الهامة حول غرائزهم، فأخبرتهم بأن الغريزة الجنسية التي تحركهم ليست بحاضرة طوال الوقت في أذهانهم، لأنها إن كانت حاضرة باستمرار ، فإنهم بهذه الصورة يعانون من هوس وسعار . لكنها بمثابة المحرك الرئيسي لقواهم مدعومة بالعواطف الجياشة، وداعمة للإبداع الفني والعمل والسعي، وفي نفس الوقت وضحت لهم أنه من الضروري تحقيق التوزان والتأني وحسن التوظيف واستقامته.

استطردت فأثمرت، تأرجحت فوصلت، وتلاعبت الأفكار بخيالاتي فوقف الطلاب يجنون حصادي. وضحت لهم أن الذكر حينما يحاول أن يرتبط بالأنثى، يحفز عقله مسار الغيرة، فيخلق عدوا ذكوريا ينافسه عليها، رغم أن الفتاة مخلصة وترغب في الاستقرار معه هو وحده. أخبرتهم عن حقيقة أن الصورة الأولية لهذا الأمر تتمثل في الصراع بين هابيل وقابيل، فالرجل يحاول أن يخلق في خياله رجلا ينافسه على فتاته ليشعر بقيمتها وبأنوثتها المشعة، رغم أن الجميلات قليلات في حقيقة الأمر .

تابعت كلماتي موضحا أن الغيرة بمثابة المدمر الرسمي للكثير من العلاقات، وأن سؤال الشريكين عن الماضي بمثابة

الهراء، لأن الأكاذيب البيضاء كثيرة والمشاغل عديدة والسياقات بطيئة، وهو ما يغمس عقل الإنسان في إناء مفعم بالتوترات والتشاحنات والشكوك، لكن الغريب في الأمر يتمثل في الطريقة التي ينتهجها العقل حينما تكثر الأفكار، حيث أنه يلقي بكل المشتتات وبواعث النقص في القمامة، وإلا أصابه الجنون.

انتقلنا بعد ذلك إلى موضوع هام، حيث وضح لي طالب نبيه رغبته في التعرف عن سر وصف كتاب الله العظيم للمخالفين بالفاسقين وبتوصيفات أخري شديدة، رغم أن الله عز وجل يخبرنا بأن رحمته قد وسعت كل شيء، ويوضح لنا أن العدالة الإلهية تقتضي أن يأخذ كل إنسان حقه مع الرأفة، وأن التوبة مطلوبة من أجل كل هذا.

وضحت له أن التوصيفات التي تتصل بالفسوق والنفاق تعمد إلى إثراء البصيرة ووضع النظام الأخلاقي وتعميق الثوابت عبر إحداث التوتر الداخلي الذي لا مفر من تفعيله، محاولة أن تخبر المخطئ بأنه في ضلال وأن توضح له أن أفعاله تقلل من شأنه وأنه من الضروري أن يتخلص منها حتى يتخلص من التوصيفات المقترنة بها وحتى ينعم بالهدوء والسكينة.

أخبرته بأنه من المعروف أن كل فعل يقوم به الإنسان قد تم استنساخه وحفظ في صحيفته، لكن الرحمة الإلهية قادرة على محو الذنوب والتسهيل من عملية ولوج الجنة إذا أراد الله عز وجل ذلك. فالله يرحم من يشاء ويعذب من يشاء وبيده الأمر كله.

أخبرته بأن الإله يعرف كل شيء قبل أن يحدث، يدرك اختياراتنا قبل أن نقوم بها، ويعرف بدايتنا ونهايتنا، وقد تابعت كلماتي موضحا أنه من الضروري أن نخبر أبناءنا وبناتنا بأن الله ليس كمثله شيء وبأن التعبيرات القرآنية التي تظهر تفاعلا إلهيا مع الأحداث تحمل مسارا مجازيا في حقيقة الأمر. فالله لا يتأثر بشيء والله غني عن العالمين، ورغم ذلك فإنه من المعروف أن رحمته قادرة علي مساعدة الجميع علي المضي إلي الأمام وتجاوز كل شر. حتي يعم الخير في نهاية المطاف، وهو ما يمثل حسن الظن والاتزان الذي من الضروري أن يسيطر علي عقلية المؤمن، حتي إن أظهر فكره أطيافا من التشاؤم بين الحين والآخر. لأن الطبيعة البشرية متأرجحة حتي تستقر، ومضطربة حتي تهدأ، لكن الهدوء لا يتم إلا بالتلاشي والعودة إلي رب العالمين.

صفق الحضور. أخذوا يصفقون دون توقف، وها هو غروري اللعين يرتفع إلى معدلات قياسية، ها هو يحرك بداخلي ما لا يجب تحريكه، فأحسست بأنني قد فتنت، وسرعان ما استجلبت أحوال عظمة ربي، وأبعدت نفسي عن غرورها المميت.

عدت إلى الفلسفة الخالصة، فأخبرتهم بأنه من الضروري ألا نتعرض إلى الفلسفة السيورانية باستمرار. وأنه من المهم ألا نثق بالفكر المقدم دون تمحيص وألا ننخدع بالخواجة الذي يقدم إلينا المعرفة، لأن الفكر البشري مفعم بالمغالطات والأخطاء والهراء، فقد خلق الإله الإنسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين، وهو ما يؤكد أن الخلل موجود وأن الكمال لله وحده.

وضحت لهم أن شوبنهاور كان يعاني من تشاؤم غريب، وأنه كان يحتقر فكرة الوطنية كفولتير. وكان يخبر الشباب

بأنهم لن يجدوا سعادة في الحياة، وكان يدعو إلى الهمجية في بعض الأحيان.

حينها، خرج شاب ثري يرتدي قميصا يحمل علامة لاكوست، والغريب في الأمر هو أنه كان يرتدي نضارة سوداء شعرت بأنها كانت تنتمي إلى عائلة بيربري، وقد شرع في التحدث، فأخبرته بأن يرسل التحيات إلى بيربري قبل أن يتفوه بأي كلمة.

ضحك بشدة، ضحكت، ضحكت طالبتي المميزة، ضحك الجميع، أخذنا نضحك، نظرات نتبادلها، كلمات نتشاركها، وها هو يخبرنا بكلمات أنيقة، فيوضح أن الفرد واهم، وأنه يتفق مع شوبنهاور ، حيث يري أن السعادة سراب، لأن كيمياء الدماغ متأرجحة مضطربة ذات حساسية عالية وتحرك لا نفهمه ولا يمكننا أن ندركه، وقد بين أن الإنسان يعمل فيبحث عن القيمة، يمل فيبحث عن الزواج مدعوما بالحب والجنس والرغبة في تكوين عائلة، تكثر عليه المسؤوليات فيشعر بالورطة التي قد تؤدي إلى تصرفات حمقاء، ويعتقد بأن هناك سكونا نفسيا في هذه الحياة الدنيا. وقد أضاف إلى كلماته جملة نفاذة، حيث وضح أن الدنيا مشتقة من الدنو، وتساءل عن حقيقة إذا كنا قادرين على أن نحصد شيئا ثمينا في عالمنا السفلي.

أخبرته عن تعجبي من هذا التشاؤم الذي يحوطه رغم كونه من الأثرياء، فأخبرني مجددا أن الأمر يتعلق بكيمياء الدماغ وتعقيدات الشخصية وطبيعة البيئة وحجم الذكاء وهيئة التوقعات وغيرها من العوامل التي يصعب التحكم فيها، لأن تشكيلها الأولي بعيد عنا، وهو ما يمثل الحاجة إلى أهمية أن ندرج أحجامنا وأن ندرك السر القابع وراء التأكيد علي رحمة الإله والرأفة.

كان طالبا نبيها، نظرت إليه فتاة جميلة فأحست بشيء ناحيته،
أحسست بأنها "سابيوسكشوال"، رأيت بأم عيني تحركا غريبا،
وغادرت القاعة منتشيا، بعد أن داعبت ملاعبات الشباب دواخلي
وبعد أن أزاحت التراب عن إيروسي، إيروسي الذي دفن في القاع
رغم انتعاشه الآثم الذي لحق به منذ فترة. وقد عرفت فيما بعد
أن الشاب قد ارتبط بالشابة رسميا.

-3-

في محاضرة غريبة جمعت بين الجنسانية والفلسفة وعلم النفس، أخبرني طالب مميز بأن الكثير من علماء الجنسانية ومحلليها، قد ينظر إليهم على أنهم مهووسون أو مكبوتون أو منحرفون أو مبالغون، وهو ما يختلف من إنسان لآخر ومن بيئة لأخري.

وضحت له أن من يتحدث في الجنسانية لابد أن يدرك طبيعة البيئة، وأن العصر الذي نعيشه قد سمح لنا أن نتحدث كما نحب دون أن نهتم برأي أحد فينا، وهو ما يمثل السياق الذي يتحرك بداخله الكثير من محللي الجنسانية.

أخبرته بأن بعض أبناء البيئة المحافظة قد ينظرون إلى من يتحدث عن هذه الأمور على أنه يتحدث عن الشيطان، وهو ما يرتبط بضيق الأفق، لأن الفكر الديني يتعامل مع الغريزة الجنسية على أنها أمر روحاني وعظيم طالما أنها توظف داخل الإطار الرسمي والصحيح.

بينت له أن المسلمين الأوائل كانوا يتزوجون بكثرة وكانوا مهتمين بتحليل الكثير من السياقات المرتبطة بهذه الأمور. بل إن رجالهم كانوا يعبرون عن حبهم للنساء وإعجابهم بالجمال، لكنهم كانوا يهتمون بالتوظيف السليم في أغلب الأحوال.

حدثته بأن الأمر في نهاية المطاف يتمثل في تحقيق الغاية الرئيسية المتمثلة في التكاثر وتشكيل العائلات، وهو ما يؤدي إلى وجود النسل الذي من الضروري بالنسبة إليه أن يعبد الإله ويذكره، لكن الحقيقة تخبرنا أيضا أن الإله غني عن العالمين.

حينها أضاف الطالب كلمات هامة إلى سياق النقاش، حيث وضح أن الوجود يثبت باستمرار عبر عملية التعمير والتنكيس أن العظمة للإله وحده، وهو ما يرتبط بحكمة إلهية لا تسمح لنا عقولنا الصغيرة بأن ندركها.

وضحت له أنه من الضروري أن نفتخر بإنجازاتنا، وأنه لا بأس بأن نشعر بالانتصار بين الحين والآخر، لكنه رغم ذلك من المهم أن نعي الحقيقة وأن نضع نصب أعيننا الواقع، ذلك الواقع الذي يخبرنا بأن العظمة للإله وحده.

خرجت طالبتي المميزة المحببة المرافقة لي، وقد وضحت أن كثرة الكلام عن شيء قد تكون وسيلة لإخفاء شيء، كما يقول نيتشه، وأنه من الممكن لمن يتفاخر باستمرار وإصرار بإنجازاته أن يكون ممن يعانون من إحساس باضطراب القيمة وممن يشملهم التوتر الوجودي بشكل عميق.

أخبرتها بأنه من الضروري ألا نعمد إلى التعميم، وقد وضحت لها أمرا مرتبطا بكلماتي الأولي، حيث أخبرتها بأن بعض الحمقى ينظرون إلى من يتحدث عن الروحانيات وعظمة الإله باستمرار على أنه لم يتمكن من الوصول إلى توقعاته العالية جدا، فنزل بالبشرية إلى القاع وأخذ يمتدح الإله فقط، لكنهم سرعان ما يدركون الحقيقة التي لا مفر منها، تلك الحقيقة التي تؤكد أن العظمة والدوام لله وحده في حقيقة الأمر.

انضم إلينا طالب أشعث الشعر أنيق الثياب ذو ابتسامة خلابة، وقد وضح أن الكاتب المعروف جابرييل جارسيا ماركيز قد نبه في إحدى المرات إلى حقيقة أن من ينتظر الكثير جدا عليه أن يتوقع الحصول على القليل جدا.

وقد أخبرنا بأن المنطق يتطلب أن ننتظر المعقول ونرضي بكل ما يأتينا دون توقعات محددة ودون تبرم، فكل شيء قد كتب والقدر قد وضع كلمته وكل شيء بمقدار.

ظهر طالب واقعي على الساحة، وقد نبه إلى حقيقة أن الناس لا تحب أن تنصت إلى الحقيقة، لأنهم لا يريدون رؤية أوهامهم تتحطم.

بتنورتها القصيرة الأنيقة، وبقميصها الأبيض الشفاف، خرجت إلينا طالبة جميلة كاشفة عن شراسة كانت دفينة، وقد وصفت الطالب باللص، حيث نبهت إلى حقيقة أن ما قاله يخص نيتشه، نيتشه الأحمق المختل كما وصفه تولستوي في مرة من المرات.

وقد سألتهم عن سر وصف تولستوي لنيتشه بهذه الشكل، فأخبرني أحدهم بأنه يشك في هذه الكلمات وفي حقيقة وصف الأول للثاني بهذه الطريقة، بينما أخبرنا طالب بارع بأنه من المنطقي أن يهاجم رجل ذو فكر ديني قوي كتولستوي فكرا نابعا من عقلية رأت أن يسير كل إنسان وفقا لمنظومته.

رجل يجرجرني إلى ساحة تتوسطها نافورة بهية تحوطها راقصات حسان، وطالبتي بينهن كشمعة مشتعلة قادرة على جذب الانتباه، فأمر بينهن محاولا الوصول إلى ما يجب الوصول إليه قبل فوات الأوان.

لكنني سرعان ما أجد ما لم يكن في الحسبان، وجدت رجلا غريبا يجلس بينهن كاشفا عن ود وابتهاج، أحسست بأنه سوداوي عبثي يسخر من بيئتنا كمجنون عجيب، فاقتربت منه بحذر واهتمام.

كان الكتاب في يده اليمنى وكان الخابور في يده اليسري، كان يحدث مجموعة من الشباب عن أمور غريبة وغرائز عجيبة، فدنوت منه أكثر وأكثر وجلست معه أطول وأطول، بينما انفض من كانوا حوله من حوله وهرعوا بعيدا عنه.

انضمت فتاتي إلى حلقتنا، ووصلنا إلى السماء بكلماتنا، فلذة الفكر لا تضاهيها لذة، وعندما نجلس مع مجنون، نشعر باللذة في قمتها، فحينها نجد السريالية تلاعبنا والخيالات تداعبنا.

في الاتجاه المقابل، وجدنا رجلا يحدث مجموعة من الشباب عن الفضيلة، يدعوهم إليها، ويضخم من فكرة الجحيم، لكنه في نفس الوقت يؤكد على الرحمة الإلهية، ويؤكد أنها ستشمل الجميع إذا أراد الإله ذلك.

كان يحدثهم عن الجنات ويخبرهم بأنها درجات وفقا للكثير من النصوص الدينية والقرآنية، ويدعوهم إلى الاقتراب من

طريق الرشاد، لكن فتاتي أظهرت عدم اهتمام، فشكوتها إلي الإمام، فأخبرني بأن أصبر عليها لعلها تنصت فتفهم فتدرك حلاوة الرشاد.

استيقظت من نومي بعد أن شهدت كل ما هو مريب، احتسيت قهوتي، أكلت فطيرة بداخلها مربي جميلة تزينها القرفة ويمثلها التفاح ويلاعبها فمي كاشفا عن ارتياح، فاللذة كامنة في طعام ينم عن سذاجة عقل يحاول أن يلهي كيانه بعيدا عن توتر وجودي ونهاية ضبابية، لكن الضباب ليس بضباب حينما نستجلب أحوال الروحانية.

وها هو الجبن يتأملني، جبن بداخله حبات توت أزرق، وآخر تنام بين حوافه حبات توت أحمر، لكن الطعم غير مستساغ، فليس كل ما يثري الأنظار بقادر على أن يمنح اللذة والسكون.

انتقلت إلى بان كيك عظيم وملأته بشراب القيقب اللذيذ، لكنني سرعان ما تذكرت نصائح الطبيب، فانتفضت من مكاني متذكرا الوعيد.

-5-

تتحرك السيارة بسرعة كالعادة، أقودها بتهور كاشفا عن تصور، تصور لأمور لا يمكن تصورها، لكن فتاتي إلى جانبي مستمتعة بجنون أستاذها، وها هي تخبرني عن أمر قادر علي إشعال حماستي.

تخبرني بأنها بارعة في الرقص، وأنها قادرة على التفوق على أشهر الراقصات وترغب في أن تمارسه بعد التخرج، فأوضح لها بأنه من غير اللائق أن تترك مجالها ودراساتها الأكاديمية والفلسفية من أجل التعري والشهرة الزائفة.

تخبرني بأنني أهاجم الراقصات، فأخبرها بأنني لا أحب المهاجمة، وأنني لا أهاجم إنسانا ولا أبالي بأحد، لكنني أهاجم النشاط نفسه، أهاجم ما لا يليق.

أوضح لها أننا كثيرا ما نهاجم ما يكمن بداخلنا لأننا نشعر بأنه يرغب في أن يترجم إلى أرض الواقع، وعندما نهاجم ما يرغب في أن يترجم إجباريا لأسباب لا نعلمها، نهاجم دون قصد من سبقونا في ترجمة دواخلهم الشبيهة، رغم أن الأمر ببساطة يتمثل في محاربة أمور داخلية، لأن التجربة داخلية قبل أن تكون خارجية، نعم، التجربة داخلية قبل أن تكون خارجية.

تخبرني بأن مشكلتها كامنة في صغر حجم صدرها، وقد جلست تحدثني عن جسدها بتحرر واضح، فأخبرتها بأن الثقافة الأمريكية اللعينة قد أثرت على أسلوب تفكيرها، لأنها ثقافة لا تجد مانعا في أن تجلس الفتاة لتحدث الذكور عن ملامح جسدها دون أي خوف أو خجل.

ضحكت بشدة، وكنت أضحك أنا الآخر، بينما كان المقود على وشك أن يترك بعيدا عن يدي بعد أن طبعت الشقية قبلة سريعة على فمي، وقد تعجبت مما حدث، وأخبرتها بألا تفعل ذلك مجددا، منعا للإحراج وتجاوز الحدود والندم.

أخبرتني بأن الفتاة التي سبق لها أن تعرفت إلى شباب، تشعر بخوف حينما تتعرف إلى شاب يرغب في الارتباط بها رسميا، شاب يمثل المحطة الأخيرة، حيث أنها تخاف أن تظهر خبرة أو قدرة على التجاوب، وهو ما يمكن رصده بسهولة، وقد تابعت كلماتها موضحة أن الفكر الغربي المتحرر لا يبالي بذلك، لأنه من الطبيعي أن تتعرف الفتيات إلى الكثيرين عن قرب وأن تفصح عن ذلك.

أخبرتها بأن الوضع مختلف، لأننا نعيش في مجتمع ذي طبيعة دينية يدعو إلى الستر وعدم التحدث عن الانتهاكات الخفية، وأنه من الخطأ أن نعمد إلى التعميم، ومن المهم أن نشير إلى حقيقة أن الصنفين موجودان، وأن للستر وعدم التحدث عن الماضي ضرورة وأهمية.

أخبرتني بأن الفتيات الشرقيات يتحدثن عن عدد الأفراد الذين تعرفوا إليهم دون تفاصيل، وهو ما يمثل الشائع في وقتنا الحالي، رغم أنهن في الماضي كنا صامتات، وهو ما كان يمثل المنطق والصواب.

أخبرتها بأن هذا الأمر يمثل محاولة منهن لإخبار الشاب الجديد عن حقيقة أنهن مرغوبات، فكما يبالغ الذكر حينما يتحدث عن قدراته، فإن الإناث يبالغن حينما يتحدثن عن كونهن مرغوبات،

وقد تابعت كلماتي موضحا لها أن كل هذا يخالف العرف والدين.

أخبرتني عن تعجبها من الموقف، وقد تساءلت عن حقيقة الحساسية الزائدة التي تظهر حينما يخص الأمر الفتيات، فأخبرتها بأن الخطأ الذكوري لا يختلف عن الخطأ الأنثوي، لكن الجسد الأنثوي يمثل التوظيف ولذلك هناك اهتمام أكبر به، وقد بينت أن الانتهاكات بنوعيها موجودة على الجانبين، دون أن أعمد إلى التعميم ودون ربط الوصف بالأغلبية.

تعجبت الفتاة مما آل إليه الموضوع، وقد غيرته، وأحست بعدم الانسيابية، فضحكت بشدة، وأخذت هي الأخرى تضحك بقوة، بعد أن عادت إلى موضوع الرقص الشرقي الذي كان يلاعب ذهنها دون توقف.

-6-

تأثير كوليدج، ذلك التأثير الذي يخبرنا بأن معظم الحيوانات الثديية تظهر اهتماما جديدا ورغبة عارمة حينما يقدم إليها شريك جنسي جديد، أي أنها لا تكتفي بشريك واحد.

بالطبع هذا التأثير يلاعب البشر أيضا، لكن ما يقيده يكمن في العرف والمسئوليات والأعباء وغيرها من الأمور، ورغم ذلك فإن الكثير من البشر يظهرون سعيا وراء أكثر من شريك جنسي واحد، وهو ما يتحقق علانية في المجتمعات المتحررة وسرا في المجتمعات المحافظة، إلا أن الارتباط الرسمي قد يمثل عائقا عند تحقيق هذا التأثير دون عوائق أو اختلاج خلجات المرء.

ورغم ذلك، فإن المتعة قادرة على أن تتحقق مع شريك واحد عبر قتل الرتابة ومحاولة فهم اندفاعية الدوبامين والسعي نحو ضخ ملامح الحماسة في الأرجاء، تلك الملامح التي قد تساعد على بلوغ المتع دون ركود. بالطبع، إنني أتحدث في هذه الحالة عن المتعة الخالصة لا عن السعادة، تلك السعادة التي تحتاج إلى عناصر كثيرة لتتحقق، عناصر تمثل المتعة جزءا رئيسيا منها.

كانت تقرأ دون توقف، كانت تتنقل بين الكلمات كاشفة عن انبساط، لكنها توقفت بغتة، توقفت وأخبرتني عن رأيي في كل ما قرأت.

أخبرتها بأن الذكور يظهرون هذا التأثير بشكل واضح، ورغم ذلك، فإن منهم من قيدته الظروف، ومنهم من سعد بالاكتفاء، ومنهم من حاول الإكثار لكنه لم يحقق الشبع بأي شكل من الأشكال، وقد وضحت لها أنني قد تعرفت إلى الكثيرات قبل

الزواج، لكنني اكتشفت بعد ذلك أن الأمر كان بمثابة المجهود الضائع، وقد ضحكت بشدة، حيث أخبرتها بأنني اكتشفت أن الحياة بأكملها لم تكن سوي خدعة وسراب.

أخبرتني بضرورة ألا أقتل آمال شبابها بأفكاري التشاؤمية، فوضحت لها أنني قد أخبرتها بالحقيقة، لكن إدراك الحقيقة يحتاج إلى التجربة الذاتية، فعلي كل إنسان أن يتذوقها بنفسه، نعم، أن يتذوقها بنفسه.

-7-

أفكار عديدة تتضارب، تتسلل إلى عقلي دون هوادة، حب وحميمية والتزام، علاقة سليمة كما يقول ستيرنبرج، هوس الثقافة الغربية بالجنس ناجم عن تشاحن بين ثقافة دينية قديمة وإعلام قواد، النساء يتحدثن كالرجال، الفتيات شرسات وقدن الحياء، باربرا موري تتأملني بعينيها، وشاب صامت يظنون أن صمته يخفي طيبة شديدة، لكنه في حقيقة الأمر شيطان كبير وعبقري لعين يحب أن يعيش بداخل عقله الباطن لا أكثر ولا أقل.

أشعر بأنني مراهق في ثوب عجوز، وربما أكون عجوزا في ثوب مراهق، لا أعرف ماهيتي، أتساءل عن حقيقتي، أتعجب من تسارع اللحظات وضربات الزمان، فالزمان يجري كالخيل الذي لا يعرف توقفا، واللحظات في حاجة إلى أن تعاش كما ينبغي، لكن العقل عاجز عن التقاط اللحظة بمهارة، لأنه يعشق التجاوز والتكيف، يعشق المرور والعبور، يعشق التعود والعجلة.

الثوابت واضحة، من يحاول أن يخلق منظومة تخصه تائه ساذج، ومن يسعي وراء السراب لن يحصد سوي الأسي والهراء، فكلما أراد المرء أن يتوغل، كلما تعثر، وكلما تعمق، كلما تململ.

فالبصيرة لا تترك المرء ولا تغادره، وهو ما يمثل المنطق والصواب، لكن إدراك الإدراك أمر يحتاج إلى وقت، والوقت سريع، والسرعة لا تلاحظ بسهولة، ولا توجد سهولة سوي باللجوء إلى كل ما لا يحس، وما لا يحس بمثابة القوة والثبات.

أشرب قهوتي متفائلا، لكنني سرعان ما يضطرب كياني، فأتذكر تلك اللحظات التي جلست فيها محاولا أن أتعرف على مراهقة زوجتي الراحلة كمجنون تحركه غيرة سرعان ما زالت، بعد أن أدركت أن الأمر لا يخصني.

لقد أخبرتني بأنها كانت ذات خلفية دينية متأصلة، وضحت لي أن عقلها كان يطلق الكثير من التخيلات وأن الجحيم كان يلاعب كيانها بإصرار وأن ذهنها لم يكن راغبا في مسار صحيح، لكنها اقتنعت في نهاية المطاف بالصواب.

أتذكر كلماتها الأنيقة التي كانت تتطرق إلى العديد من موضوعات النفس ومتاهاتها. فقد أخبرتني في إحدى المرات بأن التفوه بالكلمات البذيئة والقبيحة بمثابة الطارد للكثير من الشحنات السلبية التي تتولد مع الوقت كنتيجة للمسئوليات والضغوطات والعوائق وعوامل الكبت، وقد نبهتني وقتها إلى حقيقة أن الطريقة الأفضل للتعامل مع هذه الأمور تتمثل في التوجه إلى الدعاء والذكر والاقتراب من الروحانية، لا العمد إلى المادية وتوتراتها.

كانت جامحة، كانت تشعرك بأنها امرأة لا يمكن للبريق أن يفارقها، ورغم أنها كثيرا ما كانت تهاجمني، إلا إنني كنت مدركا لطبيعة المرأة واضطراباتها، فكنت أتحملها وكانت تتحملني أيضا.

ضحكاتي تتعالي، أصفها فجأة باللعينة، رغم عدم وجودها، لكنني سرعان ما أعود إلي رشدي، فأتمسك بالستار تاركا ما يخفي وراءه.

قفزت إلي بحر النوم، فجاءني رجل غريب، رجل أخبرني بأن كل ما كنت أطارده في شبابي لم يكن سوي وهم وخيال، فالمرأة خيال والمال وهم والأبناء أعداء والصراعات لا مناص منها، فأخبرته بأن الإنسان عليه أن يأخذ نصيبه من الدنيا دون أن ينسي الآخرة وأن العمل ضروري دون تكالب وأن السعي مطلوب دون تضارب، فأسرع بالهروب فحاولت اللحاق به لعلني أنقل إليه أفكاري، فلم يكن عقلي قدحا يتقبل ما يصب فيه دون تحليل ولم يكن ذهني ساحة يلجها أي كيان بسهولة ومرونة.

أخذت أجري وأخذ يجري، أخذت أجري وأخذ يجري، أخذت أجري وأخذ يجري، وقد تمكنت منه وسيطرت عليه، وعندما حاولت أن أتأمل وجهه، ظهر لي ما لم يكن في الحسبان، كان ماردا من الجان، وقد نجح في التسلل والانفلات بعد أن زارني متخذا هيئة إنسان.

دخلت ساحة واسعة كانت تشبه البستان، وجدت الكثير منهم مصطفين، وقد اقتربوا مني كاشفين عن وعيد وهيجان، وقد حاولت العودة إلى الوراء، فظهر كبيرهم بشكل غريب، اقترب مني وحضنني كاشفا عن أمر مريب، فأخبرني بأنهم قد سبقونا وفعلوا ما فعلنا منذ قرون وأن دورنا قد حان لكننا لم نكن سوي مصدر للتوتر والمأساة.

نزلت إلي قاعة غريبة، كان هناك اجتماع عجيب، كانوا يتحاورون حول الكثير من الأمور غير المفهومة، وعندما حاولت الانضمام إليهم، سعدوا بذلك، لكنني سرعان ما ذهلت، فقد دخلت إنسانة جميلة، كانت ملكة من ملكات الجمال، كان جمالها خلابا لا ينبغي المساس به ولا يجب انتهاكه، كانت تحتاج حبا عذريا يمكن تأمله دون الانغماس في فتنته، وعندما

حاولت الاقتراب منها، أخبرتني بأنها خيال، خيال كل رجل لازمه منذ صغره، ذلك الخيال الذي إذا مس تحول إلي واقع معقد، فوجب علينا أن نتأمل ملامحه دون اقتراب وأجبرنا علي تقبل حقيقته دون عناد.

خرج أحدهم وأخبرني بأن أعود إلى موطني، فلكل كيان موطن يخصه ولكل خلقة بيئة تناسبها، فأسرعت بالعودة وركدت كمجنون نالت منه الدهشة، بعد أن رأيت بأم عيني أمرا لو أخبرت أحدا عنه، لوصفني بالمختل الذي أصابته صراعات الحياة بالخبل والعته.

لماذا لا تريدني أن أنال بعضا من الرحمة أيها الإنسان؟ هل سأضرك إذا نلت منها شيئا بسيطا؟ هل سأصيبك بالحنق إذا حاولت التحليق بخيالي وتجاوزت واقعي؟ هل تعتقد بأنني سأحصل على نصيبك؟ هل تعتقد أنك ستسبقني؟ هل تعتقد أنني سأسبقك؟ يبدو أن الصراع قد وصل إلى قمته وصار من الضروري أن يحصد كل إنسان حقه المقترن بفعله.

-8-

تهاجمني بينما أسرع بسيارتي، تخبرني بأنني أتفوه بالكثير من الكلمات التي لا تليق، فأحدثها بضرورة أن تحترم أستاذها، فسرعان ما تتسلل الحمرة إلى وجهها وتصمت.

أوضح لها أن لساني ليس بالقبيح وأن ما ينجم عنه يتلخص في حقيقة أنني جريح، جريح حرب قد ولت وبقي أثرها، حرب تمثلت في عقود من السعي الدؤوب، لكن سفر ابني بعيدا عني قد أصابني بتدهور شديد، فكانت أزمتي أكثر عمقا وكانت حياتي أكثر غرابة.

اقتربت مني ومنحتني حضنا دافئا، وقد وجدت كتابا غريبا في يدها، فأخذته منها، وعندما تأملته، وجدت ما لم يكن في الحسبان، فقد كان كتابا عن الجان، فأصابتني الصاعقة ودهشت لما رأيت وتململت مضطربا، فضحكت كمجنونة أصابها سعار غريب تسلل إلى كيانها دون سابقة إنذار.

عاصفة ترابية تكاد أن تطيح بكل شيء أرضا، عجوز يمسك بعصاة غريبة ويقترب منا، يجبرنا على مغادرة السيارة، نجري بعيدا عنه فيلحق بنا، نصمم على الفرار فيصمم على الملاحقة، لم نكن نعرف ما يريد، ولم نكن نعرف ما نريد، فقد كان يجبرنا على التقدم إلى الأمام كاشفا عن تهديد، لكن العثرات كانت كثيرة، فنال الخوف منا، وهو ما أجبرنا على العودة معتمدين على التفاف كان سمة من سمات الطريق، وقد انطلقنا مسرعين بعد أن قفزنا إلى سيارتنا كاشفين عن خوف وارتياب.

وصلنا إلى ساحة الكلية الفسيحة، ولجنا القاعة، وقد بدأت في التطرق إلى الكثير من الموضوعات بعد أن كشف طلابي عن استعدادهم لتلقي ما يجب تلقيه.

تحدثت إليهم عن العزلة والاجتماعية، وقد أخبرتهم بأن الموازنة بين الأمرين ضرورة. وضحت لهم أن العزلة تساعد الإنسان على بلوغ الروحانيات وتأمل مخلوقات الإله والوصول إلى الكثير من النقاط الداخلية، ولكنني سرعان ما نبهت إلى حقيقة أنه من الضروري أن نعي أنها في حاجة إلى تعامل خاص، لأنها قد تجعلنا عاجزين عن إدراك حقيقة الواقع، فنلجأ إلى التشاؤم الساذج أو التفاؤل المبالغ فيه. أكدت على كون التشاؤم الساذج قادرا على صبغ التجربة بصبغة الشر الكامل، وهو ما يمثل الخطأ، وفي نفس الوقت، نبهت إلى حقيقة أن التفاؤل الأحمق يجعلنا راغبين في كل شيء بعيدا عن التوقعات المعقولة والمنطقية.

انتقلت بعد ذلك إلى التحدث عن الاجتماعية، وقد نبهت إلى حقيقة أن الاجتماعية الزائدة عن اللزوم ممرضة وأنها لا تختلف عن الانطوائية الشرسة، وفي نفس الوقت أكدت على حقيقة أننا نكتشف أنفسنا في الطريق، في المدينة، وسط الجماهير، بين البشر، كما يقول سارتر، لكنني سرعان ما أقحمت رأيي الخاص والذي أكد على أنه من الممكن أن نكتشف أنفسنا بشكل أفضل في عزلتنا، رغم كل هذا.

وقد خرج أحد الطلاب بغتة، وقد أخبرنا بأن الحفلة قائمة وكلنا مدعوون، فانتشر الصياح في القاعة، وتسلل الاضطراب، نعم، تسلل الاضطراب، من أجل الحفلة، من أجل الحفلة التنكرية التي نحياها، فاللحي طويلة والقلوب مريضة.

هياج يسيطر على المكان، صفوف تتحرك باحثة عن معرفة بسيطة منحنا إياها بعد إذن الإله، وشيطان ماكر ظنت الحضارات القديمة الساذجة أنه قادر علي الوقوف والصمود وأنه لا يمثل سوي الشر الخالص، لكنه في حقيقة الأمر أداة من أدوات الإله، أداة يمكن محوها في ظرف لحظات، أداة تدرك حقيقة أن العظمة للإله وحده، وهو ما عجز الملحدون السذج عن الوصول إليه، لأن عقولهم الصغيرة خيلت إليهم أنه من الممكن الوقوف أمام تراب سيأكلهم وسيلتهمهم، فلا يبقي من أثرهم شيء يذكر و لا تخلد لحماقتهم ذكري.

خرج طالب ماكر، وقد أخبرني بأنه يتعجب من حالي، فسألني عن حقيقة تنقلي بين الموضوعات بهذه الصورة الغريبة، فأخبرته بأن ينصت إلى ما أقول دون تعجب، فاستغرب من دوغمائية لم أعرف بها قط.

وضحت أنه من الممكن الإنصات إلى الفكر الشاذ دون التأثر به، ومن الممكن أن نعمد إلى الحجب فنستريح، لكنني سرعان ما نبهت إلى حقيقة أن العصر الذي نعيشه لم يعد يعرف حجبا، ولهذا من الضروري أن نشيد القاعدة الثابتة التي تسمح لأبنائنا أن يقفوا فوقها دون تزحزح، وبهذه الصورة نثق في قدراتنا على المرور بسلام.

صفقوا كثيرا، صفقوا بينما كانت الحيرة تحوطهم، لم يفهموا سر عدم انسيابية كلماتي، ولم أفهمها شخصيا. فكثيرا ما نطلق كلمات لا نعي سر عدم تناغمها!

عينان جميلتان تقتربان مني وتتأملاني، خضرة تحوط بيئتي، وأيام مراهقتي تراودني، لكن الصورة ضبابية بشدة، فقد سيطر الضباب على المشاهد التي ولت، وها هو عقلي يعجز عن استدعاء اللحظات الحاسمة، حتى اللحظات الحميمية الرائعة، نال الضباب منها ولم يبق سوي ألوان أشك في صحتها، فالفتنة سراب والوهم يرديه التراب.

وجدت فتاتي المفضلة تقترب مني، تخبرني بأنها تشعر بما يحدث بداخلي، فشعرت بأنها القطب الأنثوي الراقد بداخلي، لكن شيبي يمنعني من المواصلة، وسني يطالبني باللجوء إلى الحكمة، وإلا وصفت بالمتصابي الأحمق.

ورد أحمر متفتح، تمنحني الجميلة إياه فأشكرها على المغازلة، لكنها سرعان ما تمنحني قبلة حماسية فاتنة، فأبكي بشدة متذكرا زوجتي، فأستحضر إخلاصي لها وحبي لانحناءات جسدها، لكن الحب الجسدي فان، والروح بمثابة الأساس، فأعدل عما خرج مني وأتجه إلى الرشد في سرعة تامة، وها أنا أقحم الكثير من العبارات الرشيدة في السياق، فأخبر نفسي بأن الود دائم وكل ما يري خدعة كاذبة.

طالبة متفوقة أحببت دائما أن أمنحها درجات كثيرة لأسلوبها الناعم ونظرات عينيها الأنيقة، ألا يجعل ذلك مني منحرفا كبيرا؟! فتأمل الغزلان مرض يجب العلاج منه وإلا صار المرء عربيدا، لكنني لم أكن سوي رجل تقليدي اضطرب أحيانا واستقر أحيانا أخري.

ها هي تقترب مني وتجلس عن يميني، تخبرني بألا أقلق حيال أي شيء، فالحياة سريعة قصيرة، كلها مكر ودهاء، كلها صراع وخداع، كلها محاولات تهدف إلى تصحيح أخطاء.

فأخبرها بأنني أعرف الحقيقة منذ صغري، أعرف جزءا بسيطا منها في حقيقة الأمر، فالحياة تعلمنا على طول الطريق، تمنحنا توصيفات شرسة تهدف إلى إعلاء بصيرتنا، وتخبرنا بأن المضي إلى الأمام يحتاج إلى الرشاد.

ولكن ما هو حجم الخطأ الذي ارتكبته؟ لا أعرف! وما حجم الصراع الذي خضته؟ لا أعلم!

إذا، لماذا أتساءل عما لا يخصني؟!

وبينما كنت أخبر نفسي بما وجب إخبارها به، وجدت الفتاة المليحة تخبرني بضرورة ألا أتساءل عما لا يخصني أمره، وقد وضحت لي أن العقل ينظر إلى ما مضي على أنه عشوائي حينما يهرم، وربما حينما يتقدم، حينما يتقدم إلى الأمام، نعم، حينما يتقدم إلى الأمام، بل وفي كل مرة يتقدم إلى الأمام.

أخذت ضحكاتي تتعالي في عنان السماء بينما كشفت الفتاة عن بدلة رقص عجيبة ساعدتها على تقديم فقرة مريبة داعبت أمورا دفنت تحت التراب ونال منها ما نال!

لا يمكنني أن أنسي تلك الفتاة التي عرفتها حينما سافرت إلى إسبانيا في صغري! كانت بعينيها تأسرني وكانت بمخالبها تلاعبني. لقد فتنت! وها أنا أتأمل ومضات تتعلق بما فتنني، ولهذا

من الضروري أن أستغفر ربي ومن الضروري أن أخرج من غفلتي.

كان حلما عجيبا، وكان نوما متقلبا، فاستيقظت مضطربا لكنني سرعان ما هدأت مدعوما ببشاشة رجل قد ولج منزلي دون علمي.

-10-

ما بك أيها الرجل؟ هل تحمل كل كتاباتك صبغة واحدة؟ هل تصف أمرا واحدا بصورة دائمة؟ هل تحب أن تتحدث حول موضوع ما في تكرار؟ هل تمثل كتاباتك واقعا أم أنها لا تمثل سوي الخيال؟ لماذا تشعرني كتاباتك بأنها أحاديث دائرة بين مجموعة من الفرنسيين؟

إنني لا أشعر بأن هذه القصص تتماشي مع مجتمعنا، أشعر بأنها لا تتصل بعالمنا، أشعر بأنها تمثل نفسا واحدة تعمد إلى تشكيل شخصيات مختلفة في كل مرة.

هكذا حدثني رئيس دور النشر حينما تقدمت إليه بعملي الجديد، وقد وضحت إليه أنني أعمد إلى فكرة ممتدة فأقدمها على هيئة أعمال قصيرة منفصلة، يعمد كل عمل منها إلى شخصيات مختلفة، لكنها رغم ذلك تدور حول فكرة واحدة محاولة تشريحها تشريحا كاملا.

لا تحاول أن تتفوق بإدراكك على إدراكي، لا تحاول أن تفعل ذلك بأي شكل من الأشكال، فإن كلماتي تحدث النفس المضطربة، لا تحدثني ولا تحدثك، إنها تحدث النفس المضطربة المنكسرة المدركة للحقيقة دون أن تحاول تزييفها أو التلاعب بها. فكتاباتي المتواضعة تهدف إلى إعلاء البصيرة بصورة مختلفة، وتعمد إلى توصيفات عامة دون أن تعمد إلى أشخاص، وبهذه الصورة، فإنها تصف نشاطا لا أفرادا.

هكذا حدثته، وقد أخبرته بأن هناك أعمالا تحمل صبغة واحدة وهناك أخري تحمل صبغات مختلفة.

وافق الرجل على نشر العمل الجديد، وقد أحبته فتاتي النبيهة، وأخذت تقرأه لي بينما كنت أقود السيارة متجها إلى الكلية في الصباح الباكر.

لقد أنهت نصفه في جولة الذهاب، وأنهت النصف الآخر في جولة العودة، حينما كنت أعمل على إيصالها إلى منزلها.

-11-

كان الشيطاني يلاعبني، كان يطلب مني أن أرسل صورا عارية لبعض شباب الانستجرام المسعورين الحالمين الواهمين، لكنني تمكنت من ردع نفسي وقد تذكرت قيمتي فانفض الهراء من حولي، لكنها كانت في حقيقة الأمر افرازات غدد وإحساسات بالرغبة وكانت تبحث عن مسارات للتوظيف، وهو ما مكنني من التطرق إليها وقطعت الطريق علي عدوي منتظرة المسار الصحيح.

هكذا أخبرتني طالبتي الجميلة في إحدى الجلسات المحتدمة.

لماذا لا تخبريني بأنها مراهقتك لا أكثر ولا أقل؟ فما سر تضخيمك لكل هذا؟

هكذا كان ردي.

أخبرتني بأن الإمام قد أخبرها بضرورة البحث عن الصلاح، والمرور المقترن بالاعتراف إن حدث خطأ ما دون العودة إليه مجددا، وأنه من الأفضل أن أبتعد عن كل هذا الهراء وأن أسعى في طريق الرشاد منتظرة رحمة الإله الواسعة. فمن استغني فاز ومن صبر ملك ومن انتظر وصل.

ضحكت بشدة وسألتها عن رأيها الحالي فيما يخص الرقص، فأخبرتني بأنها قد عدلت عن فكرتها وأنها ترغب في الاستفادة من دراستها، فصفقت لها وامتدحت نمو فكرها وارتقائه.

سألتها عن رأيها في الزواج لعل الهدوء يشملها هي وبالها، فأخبرتني بأن طبيعة المجتمع تفرض علينا الزواج في نهاية المطاف، وقد وضحت أن الموضوع غرائزي بقوة، وأنه رغم ذلك هناك من يتمكن من تجاهله بعد صراع.

نبهت إلى حقيقة أن الفكرة ملحة، لأن التكاثر بمثابة الهدف الرئيسي للوجود مقترنا بالعبادة، فكي نعبد لابد أن نوجد، ولهذا فإنه من المعروف أن الحفاظ على النوع والتكاثر بمثابة الأساس.

أخبرتها عن رأيها في العبادة ومدي اهتمام البشر بها، فوضحت لي أننا مطالبون بالسعي في طريق الإله، وأن ندعو الله بأن يساعدنا على عبادته، وأن نهتم بأنفسنا فحسب، وقد بينت أن الزمن الذي نعيش فيه يحتاج أن ننجو بأنفسنا، لأن الفتن كثيرة والمسائل معقدة للغاية.

وضحت لها اتفاقي معها، وقد سعدت بذلك، لكنها قد صرحت بما يقطن بداخلها دون خجل أو نفاق، موضحة أن أكبر أمانيها تتمثل في الحصول على شريك حياة.

فأخبرتها بأن الأمر معقد، وأن الحبيب بداخله يكمن العدو، وأن الأمر بأكمله يتعلق باللجوء إلى الإله، وأنه رغم ذلك لا مانع من إيجاد الحبيب والارتباط بالمقربين والأصدقاء والعائلة دون أن ننسى الحقيقة، لأن الوجود يثبت بجدارة أن الأقنعة تسقط الواحد تلو الآخر، وأنه لا يبقي في نهاية المطاف سوي الواقع، الواقع الذي يخبرنا بأن الحياة تعلمنا أن نقترب من الإله أكثر فأكثر، لا أكثر ولا أقل.

سعدت الفتاة بكلماتي، لكنها سرعان ما تعجبت من حالتنا، لأن الدين لا يسمح لرجل غريب بأن يشارك فتاة يومها بهذه الصورة وعن كثب وبصورة مستمرة.

وضحت لها أنه لا مناص من إصلاح الموقف في يوم ما، وأنه من الأفضل ألا تحدث أي تجاوزات حتى نسهل من عملية التخلص ونقتل سياق الإبقاء، فيصبح الوضع أكثر سلاسة.

-12-

رحلت الفتاة ولم نتقابل مجددا، رغم كوننا في نفس الساحة، وقد استيقظت في يوم من الأيام مفزوعا، بعد أن رن جرس الباب دون هوادة.

رحبت برجل قد أرسل بواسطة دار النشر التي كنت متعاقدا معها، وقد جلسنا نتحدث حول الكثير من الأمور، من بينها كتاب جديد كان من المتوقع نشره.

لكن الحديث قد نقلنا إلى دائرة مختلفة، حيث أخبرني الرجل فجأة بأنه روحاني متأصل، فسعدت بكونه من القلة، تلك القلة التي تبالي بكل ما يثمر.

لكنني اكتشفت بعد فترة أنه هيدوني لعين، فقد كان يتأرجح بين النساء والمخدرات والخمور بلا توقف، وقد تعجبت من عقليته فلم أفهمها في البداية.

اكتشفت بعد ذلك أنه ملحد، وفي نفس الوقت كان لا يريد أن يعترف بذلك، لكنني قد تساءلت وقتها بداخلي عن كيفية تمرد هذا العقل الصغير بهذه الصورة، ثم سرعان ما ذكرت نفسي بأن الله غني عن العالمين.

كان يظن نفسه أنه سارتر، لكنه لم يكن سوي طرطر، لم يكن سوي ساذج غريب عاجز عن التحليل أو التنقل بين الأفكار، ورغم ذلك، لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن سارتر كان هو الآخر ساذجا، حتى لو كان معروفا بذكائه.

أدركت بعد ذلك أنه كان لا يعرف شيئا عن مفهوم التوبة، وقد لاحظت أنه قد عجز عن التعامل مع التوصيفات القرآنية التي تتعلق بالفسوق والنفاق وأنه لم يكن قادرا على تقبل حقيقة أنه قد حصل على هذه التوصيفات كنتيجة لأفعاله السيئة.

لقد ترك السياق الروحاني الحقيقي من أجل متعه الفارغة، لم يفهم حقيقة أن العدول عن الفعل قادر علي نقل الإنسان إلى بيئة صالحة وبعيدة عن التوصيفات السابقة، لم يفهم النص لأن لغته لم تكن بقوية، ولم يدرك حقيقة أن الرحمة الإلهية واسعة وأن كتاب اللّه يخبرنا بأننا بعيدون عن المثالية.

كانت حالته نادرة، فقد عمد إلى أفكاره بسبب متعة وهروب رغب فيه باستمرار، ولم يعمد إليها بعد أن راودته خواطر وجودية أو شيء من هذا القبيل.

لقد تجاهلته، لم أتفاعل معه، وأنهيت حديثنا وانتهى الأمر. فالحياة تعلمنا في الكثير من الأوقات أن ننجو بأنفسنا، وأن النجاة في هذه الحالات لا تمثل أنانية أو شيئا من هذا القبيل، لأن كل إنسان يحمل عقلية معقدة غريبة والحياة سريعة والمشاغل كثيرة.

في إحدى الجلسات المحورية بالكلية، جلسنا نتحدث عن هيكل النظام النفسي الاعتيادي، وقد نبهت إلى حقيقة أن الاستخدام المنتظم للعقاقير المخدرة، يؤدي إلى تلاشي هذا النظام، دون وجود نظام جديد ليحل محله، وهو ما يؤدي بدوره إلى الفراغ النفسي.

لقد أكدت عل حقيقة أن الذهان بمثابة النتيجة المباشرة لهذا الفراغ النفسي، وقد وضحت أن الشخص قد يحاط بالأوهام والهلوسات، وأنه قد يصاب بعزلة شديدة أو إحساس بأن هناك من يراقبه أو بارانويا غريبة تشعره بأنه مضطرب وبأن هناك من يهاجمه ويريد القضاء عليه، فينظر للجميع على أنهم أوغاد.

من الممكن أن يتعرض الفرد في هذه الحالات إلى تأرجح المزاج بقوة، وقد يفقد المتعة بشكل تدريجي ويعجز عن إيجاد المعني في كل ما يحوطه.

أخبرت الطلاب بأن بعض المفكرين يدرجون تأثيرات المخدرات ضمن النطاق الروحاني، لكنهم في نفس الوقت يخبروننا بأنها تأثيرات مؤقتة مهلكة، ويوضحون أن الروحانية الحقيقية صعبة المنال، لكنها إذا بلغت، حلت البركات وامتدت التأثيرات إلى الأبد.

ظهرت فتاة جميلة علي الساحة، اقتربت مني مبتسمة، وقد أخبرتها بأنني لم أرها من قبل، فوضحت لي أنها قد انضمت إلى الصف للتو، وأنها طالبة جديدة تحاول أن تستقي المعرفة من مصادرها المشعة.

استمرت المحاضرة لساعات، وقد غادرت في عجلة من أمري، حيث أنني كنت جائعا بشدة. وقد سألتني الفتاة المبتسمة الضحوكة عن إمكانية أن ترافقني، فسعدت بذلك معبرا عن ترحيبي بها.

-14-

ولجنا مطعما بسيطا معروفا بشطائر البرجر الرائعة، وقد طلبنا شطيرتين كبيرتين مدعومتين بكولا وبطاطس مميزة يغطيها البارميزان والثوم.

جلست الفتاة أمامي كاشفة عن حلاوة وبهاء، وقد نالت الذكريات مني متذكرا ما ولي، لكنني سرعان ما عدت إلى نقاشنا، ذلك النقاش الذي اختص بسؤالي عن رأيها في الدراسة وزملائها وزميلاتها.

أخبرتني بأنها تشعر بأن دراستها لا تتصل بسوق العمل، وأن الأصدقاء ليسوا بالمتجاوبين وأن التشاؤم يسيطر على الأجواء. فأخبرتها بأن التشاؤم مذموم، وأن الصداقات ستكون مع الوقت وأن سوق العمل يحتاج إلى مجهود جديد، مجهود يتم توظيفه بعد التخرج بشكل أكيد، لكنني سرعان ما وضحت لها أن الحياة لا تمثل سوي سلسلة من الصعاب، تلك الصعاب التي نرتاح بينها بين الحين والآخر، لأن الشعور بالراحة لا يأتي إلا بعد تعب والإحساس باللذة لا يأتي إلا بعد ألم، فالحياة خليط من كل شيء، ومن ظن أنها لون واحد، فقد خدع.

ابتسمت الفتاة وشكرتني بعد أن قدمت إليها توضيحا جيدا لبعض الأمور، وقد رسم فمي ابتسامة خلابة معبرا عن سعادتي بحواري معها، وقد جاءنا الطعام الشهي متسببا في لعاب يسيل وقلوب تشرئب.

برجر مميز يعلوه جبن لذيذ تتوجه شرائح طماطم ويزينه خس أنيق، أما الخبز، فإنه طازج وحلاوته تبدو عليه قبل أن يؤكل،

وها هي البطاطس تلاعبنا كاشفة عن سعرات عظيمة لا مناص منها. نتشارك الطعام ونشرب ما يشرب محاولين أن نستمتع باللحظة، وها أنا أري مراهقتي فيها، أري تلك اللحظات التي اقترنت بالملاعبات الداخلية والمشاعر الخفية والتوترات القلبية، وأتأمل السراب وأتعجب مما آلت إلى التجربة.

طلبت الخردل الحار وأضفت الأيولي إلى البطاطس، وقد تمكنت من الحصول على زجاجة كاتشب جديدة، لكنها في نهاية المطاف لا تمثل سوي صلصة.

وقد طلبت الفتاة بعض الحلوى، فتشاركناها دون جدوى، حيث إنها لا تمثل سوي سعرات فارغة تتسلل إلى جسدينا، لكن الواقع يخبرنا بأن لذتها مقترنة بنشوة.

كانت الحلوى تزين الفم، لكن الفم كان منشغلا بقبلات كنا نتبادلها، فلا أعرف كيف أقحمت في بيئة كهذه ولا أعرف كيف وصلت الأمور إلى هذه الهيئة، لكن المكان كان خاليا، فلم يلحظ أحدهم ما آل إليه الوضع. لكنني سرعان ما ذهلت بعد أن رأيت أن ما عشته لم يكن سوي وهم وخيال خال من الإحساس والمعني.

-15-

لقد أصرت الفتاة على أن تزورني في منزلي، وقد أخبرتني بأنها كانت راغبة في التعرف على ملامح بيتي الموقر، فوضحت لها أنه من الممكن أن تجلب زميلاتها لزيارتي على أن أعد لهن شرائح بيتزا نابولي مميزة.

جاءت الفتيات وقد رحبت بهن، لكن إحداهن سرعان ما سألتني عن سر ما كان يفعله جاري ذو الكرش الكبير. أخبرتني بأنها قد رأته يرقص مع ثلاث فتيات في الشرفة بينما كانت تقترب من منزلي، فأخبرتها بألا تبالي به، لأنه لم يكن سوي عربيد.

عربيد يجري وسط الصحراء كاشفا عن لباس يزينه علم الولايات المتحدة الأمريكية، نساء يرغبن في بتر ما يجب بتره، ورجل ذو لحية بيضاء يحمل عصاة يحاول أن يضربه بها!

إنه فيلم سريالي غريب، لكن الفتيات لم يفهمن ما عرض أمامهن، فسرعان ما تخلصت منه، وسرعان ما أحضرت إليهن فيلما جديدا.

خرجت فتاتي من صمتها، وأخبرتني بأنها رغبت دائما في التعرف على حقيقة الوحل الذي ينزل إليه الإنسان بنفسه حينما يعمد إلى المتع التخديرية وغيرها من مصادر الهروب.

فأخبرتها بأنه من الطبيعي أن يعمد الإنسان إلى الهروب عبر الوسائل الشرعية بين الحين والآخر، لكن الطرق الأخرى قد تؤدي إلى مشكلة كبيرة، مشكلة مع نفسه ومع مجتمعه ومع

دينه ومع أخلاقه. ففي هذه الحالة، قد تنشب أزمة نفسية ناجمة عن الخواء المقترن بالإدمان أو التصميم، وفي نفس الوقت، يدخل الفرد في صراع شرس مع الكثير من الأمور الوهمية، رغم أن الصراع في حد ذاته يكون مع نفسه، مع نفسه قبل كل شيء.

وضحت لها أن الفرد في هذه الحالة يعاني من صراع شديد إذا عمد إلي التصميم، وأنه من المعروف أن ظهور ناصح ما أمامه ليوجهه، قد يؤدي إلي السب والعراك، لأنه لن يتقبل النصح وسيبدأ في قذفه بالكثير من التوصيفات السيئة، رغم أن المشكلة كامنة في التوصيفات المجتمعية التي اقترنت بفعله منذ قديم الأزل، لكنه عاجز عن مهاجمة المجتمع أو النص الديني، وإلا يكون قد ألقي بنفسه في التهلكة، ولهذا يعمد إلي مهاجمة الشخص الذي عمل علي تفعيل القوالب الخاملة في العقل اللاواعي، وهو ما يؤكد أنه من الأفضل لكل إنسان أن ينجو بنفسه في هذا الزمان، لأن القلوب مضطربة والأمور معقدة!

لكنني سرعان ما وضحت لها أنه من الضروري للإنسان ألا يتقبل نفسه بشكل كامل وإلا سيكون الأمر مخيفا جدا، كما يقول يونج. وهو ما يؤكد أن الإنسان كائن يطور من نفسه ويعمل على التخلص من آثامه والاقتراب من ربه مع الوقت، وهو ما يتطلب الرشاد والعمل على تصحيح السلوكيات عبر الدخول في معركة شرسة مع كيمياء الدماغ وعبر التدريبات السلوكية والاقتراب من الروحانية، لأننا في نهاية المطاف نرجو من الله أن يرحمنا جميعا ونرجو أن تشملنا عدالته السماوية القادرة على منح الحقوق لأصحابها.

صفقت الفتيات بعد أن أنصتنا إلى ما قلت، وقد اقتربت الفتاة المميزة مني ومنحتني حضنا دافئا، فأصابت الدهشة زميلاتها وتعجبن من خبلها، وقد تعجبت أنا الآخر مما فعلت لكن النشوة بداخلي كانت تسري.

لا يمكنني أن أنسى تلك الزيارة التي دفعت بها إلى منزل عمي في صغري، تلك الزيارة التي قمت بها بعد أن أخبرني بضرورة أن أحضر زميلاتي إلى منزله على أن يعد لهن شرائح بيتزا مميزة، لكن الأمر لم يواكب الخيال، فلم يتسلل اللعب إلى الأجواء وانتهت الزيارة بعد كلمات بسيطة.

-16-

ولجت أحد مقاهي ستاربكس، ووقفت في صف طويل محاولا أن أحصل على الرضعة، وبينما كنت منتظرا دوري، وجدت امرأة كبيرة في السن تسب العاملين وتصف الأمر بالمهزلة، فقد عجزوا عن توفير مشروبها المفضل من أجلها، فأخذت تبكي بشدة وتتساءل عن إمكانية الحصول عليه، نعم، إنها مشاكل العالم الأول علي ما يبدو!

حصلت على مشروبي المفضل وجلست أقرأ كتابا يتحدث عن الخير والشر وعن أمور أخري عديدة، وقد قرأت هذه النصوص.

"عندما أخبرك بأن كل من حولك سيء، فمن الممكن حينها أن تصفني بالسيء، بالسيء جدا، لكنني حينما أخبرك بأن التعميم باطل، فحينها من الممكن أن تتقبل أفكاري وألا تهاجمني، لكنني لا أبالي بشيء في حقيقة الأمر."

"ليس من الضروري أن يصف المجرم الجميع بالمجرمين حتى يتخفى عن الأنظار، فربما من يصفهم بذلك إنسان طيب، إنسان طيب جدا!"

"لا أتفق مع تولستوي حول حقيقة أن من يصف الجميع بالأشرار، لابد أن يكون شريرا جدا، فربما تكون جملة عابرة لا أكثر ولا أقل!"

"لا يوجد ملاك ولا يوجد شيطان في هذه الدنيا، هناك خليط بين ذلك وذاك، لكن النفس الناجحة هي تلك النفس التي تعمل

على الابتعاد عن الأمور الكبيرة التي قد تنزل بها إلى درجات منخفضة."

"لقد قرأت في كتاب يدعي (الإيروسية والثاناتوسية) أن الحيوانات لا تتمتع بعواطف واضحة وأنها تظهر ذلك بين الحين والآخر فقط، لكنني لا أتفق مع ذلك في حقيقة الأمر، لأنه من الممكن أن نجد طيفا عميقا من العواطف الظاهرة عندها بكل تأكيد."

"عندما أخبرك بأن الغريزة الجنسية بمثابة المحرك الرئيسي للبشر، فإنني بهذه الصورة لا أخبرك بأنها المحرك الوحيد، لكنني أوضح لك أنها بمثابة المحرك الأساسي والمحوري، لا أكثر ولا أقل، ومن الضروري أن أشير إلى حقيقة أنها ليست بحاضرة في عقولنا باستمرار، لكنها رغم ذلك تعمل ضمن إطارات عديدة، لأنها تمثل طاقة التحرك والإبداع والإيروس بشكل عام."

" كل من عجزوا عن الموازنة بين الهروب والحضور، لم يحققوا إنجازا قيما."

"توصيفات الفسوق والفجور والنفاق وغيرها من التوصيفات هي توصيفات قرآنية بحتة تهدف إلى إخبار الضال بأنه ضال حتى يتخلص من أفعاله ويعود إلى رشده بسرعة ومهارة، إذا كان راغبا في ذلك حقا."

"إنه لأمر محزن أن يبتعد الإنسان عن طريق الإله من أجل بعض شطحات الدوبامين."

انتهيت من القراءة، سعدت بما قرأت، رسم فمي ابتسامة خلابة، وشكرت الإله على الحكمة، تلك الحكمة التي تمثل أكبر نعمة من الممكن للإنسان أن يحصل عليها، بكل تأكيد.

-17-

في إحدى الليالي المميزة، وفي مقهى تزينه ديكورات رائعة، جلست أحتسي مشروب القهوة الأيرلندية مع فتاتي المخلصة، طالبتي الشقية، وصديقتي الجديدة التي كانت تؤنس باستمرار وحدتي وتدعم عجزي.

لقد تطرقنا إلى موضوع ديني شديد الأهمية، حيث أخبرتها بأن الحجاب فرض بصورة واضحة ووفقا للكثير من النصوص القرآنية، وقد أكدت لها أن حقيقة أنها غير محجبة لن تساعدها في تجنب الواقع، وقد بينت أن الأمر نفسه بالنسبة إلى فتيات عائلتي غير المحجبات.

جلست الفتاة محاولة أن تنصت إلى كلماتي، وقد أخبرتها بأن الحجاب قد فرض على الحرائر من النساء، أما الإماء، فقد طلب منهن ألا يتحجبن، وقد وضحت لها أنه من المعروف أن الصحابي الجليل عمر بن الخطاب كان لا يسمح لأمة بأن ترتديه، لأنه كان مخصصا للحرائر فقط في البدايات.

بينت لها أن هناك خلافا بين أهل العلم في هذا الشأن، وأن أغلبهم قد ذهبوا إلى أنه لا فرق بين الحرة والأمة في شأن الحجاب، وأنه فرض على كل نساء المسلمين.

أخبرتني بأنها تتفق معي وأن حالها مثل حال الكثيرات في عصرنا الحالي، حيث أنه من المعروف أن الأمهات المحجبات قد سمحن لبناتهن أن يعشن مرحلة الصغر كما يرغبن على أن يتحجبن حينما يكبرن، وهو ما يمثل الغرابة والعجب.

لقد تابعت كلماتها، ووضحت لي أنه من غير اللائق أن تخرج معي باستمرار حتى ولو كنت عجوزا، لأن هذا لا يتفق مع الدين و لا يتماشى معه. فأخبرتها بأننا نتأرجح بين الصواب و الخطأ دون أن نركن إلى منطقة الأخطاء ودون أن نقع في بئر الأخطاء الكبرى، وهو ما يمثل الصواب، حيث أن الأمر بأكمله يتعلق بتطوير الذات والنجاة بها والعمل على تصحيح أخطائها قدر المستطاع.

لم أرها مجددا، فقد ملت الحديث معي، على ما يبدو، لكنني سرعان ما أدركت بعد ذلك، أنها قد ارتبطت بشاب من الشبان، وأنها قد عملت على تقليل دائرة معارفها من الذكور، لعلها ترضيه وتشعره بأنها تخصه وحده، لكن الغريب في الأمر يتمثل في التناقض الذي نعيشه، ذلك التناقض الذي من الممكن تقبله عبر اللجوء إلى الحقيقة التي نعرفها جميعا، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأنه لا توجد روح نقية و لا يوجد لون واحد، حينما نتحدث عن أي أمر من أمور الحياة.

إن الحياة لا تمثل سوي خلطة من كل شيء، إنها ألوان قد مزجت، إنها أيام قد كتبت، فالحياة تجري كالقطار، وهو ما يجعلنا عاجزين عن التوقف عند نقاط تناقضها إلا بين الحين والآخر، فلو توقفنا في كل لحظة، أصابنا الجنون، ولو عمدنا إلى الحكم علي البشر، أصابنا الخبل والإحساس بالذات، فالأمر لا يخصنا بأي شكل من الأشكال، رغم أنه لا بأس ببعض العبارات التي تؤكد الثوابت وتساعد الإنسان على المضي في طريق الرشاد والخلاص.

الاصطفاء، نعم، الاصطفاء، فقد اصطفي الله عز وجل آناسا ليكونوا مسلمين ولم يصطف آخرين، وهو ما يمكن رؤيته والتعرف عليه بوضوح، ولا يمكننا أن نسأل عن الحكمة الإلهية القابعة وراء هذه المسألة، فلا يسأل الإله عما يفعل وهم يسألون، وفي نفس الوقت من الضروري أن ندرك حقيقة أن الأمر ليس بيدنا وأنه لا يوجد شيء لنملكه سوي الإنصات.

لقد جلسنا نتحدث حول هذه النقاط في إحدى المحاضرات المحتدمة، وقد توصلنا إلى حقيقة أنه من الضروري أن ندرك أن الإله يفعل ما يشاء وأن عقولنا صغيرة جدا وأنها لا ترقي إلى إدراك أي شيء كبير، وفي نفس الوقت أدركنا أنه من الضروري ألا يخرج أحدنا متحدثا عن شخص محدد ومحددا مساره وطريقه فيما يخص الجنة والنار.

نبه أحد الطلاب المتدينين إلى حقيقة أنه من الضروري التأكيد على ما يؤدي إلى دخول الجنة وما يؤدي إلى دخول النار بالاعتماد على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، مع الاعتماد على التعميم لا التخصيص ومع الإشارة إلى أهمية الرحمة الإلهية والتوبة.

وضحت لهم أن كل شيء بيد الإله وحده، وأن الرحمة بيده ودخول الجنة والنار بيده، وهو ما تؤكده كل الدلائل، وأنه من المعروف أن الإنسان الطيب يتمني الخير والرحمة للجميع.

أخبرتهم بأنه من الضروري أن نتحدث عن الرحمة والعقاب بتوازن، وهو ما يعمد إليه النص القرآني، فلا نعمد إلى الشدة

وحدها، ولا نركن إلى الرحمة دون عمل صالح وابتعاد عن الكبائر، لأن الابتعاد عن الكبائر ضرورة وأمر محوري.

نبهت إلى حقيقة أن الشدة وحدها قد تؤدي بمن أخطأ إلى الاضطراب والتآكل، وأن الرحمة وحدها قد تؤدي إلى الانغماس في المنكرات، وأن الصواب يتمثل في الموازنة، فنعمد إلى السعي في طريق الإله دون أن ننسى رحمته التي ستساعدنا بكل تأكيد على فهم الخطأ ومحاولة عدم تكراره.

أكدت لهم أن الحلال بين والحرام بين، وأنه من المعروف أن الصلاة الحقيقية والشهادة بمثابة الأمر المحوري والأساس الصريح للدين، وأن الابتعاد عن الكبائر بمثابة المخلص لنا، أما من وجد نفسه قابعا في الوحل، فعليه بأن يتخلص بسرعة مما أوقع نفسه فيه وعليه أن ينهض من بين الآثام ليصبح فردا جديد الانضمام إلي فريق الأتقياء، ذلك الفريق الذي يمثل مساره الفوز والنجاة، رغم اللمم الذي كثيرا ما يطوله، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

أحسست بأن أيامي الأخيرة قد اقتربت، بدأت في التقرب بشدة من الإله، شعرت بأن الروحانية بمثابة الملجأ والملاذ، وقد أدركت حقيقة أن الحياة لم تمثل سوي الوهم والخيال، وأن كتاب الله يصف الإنسان بصورة تشريحية كاملة، فيخبرنا بكل التفاصيل والأحاسيس والأوهام، ويساعدنا على التقدم إلى الأمام والوصول إلى المفتاح، ذلك المفتاح الذي يمثل النجاة. فالحياة لعب ولهو، ورغم ذلك من الضروري أن نعمل ونسعى مدعومين بالاقتراب من الإله، وهو ما يمثل المنطق والصواب.

توجهت إلى مطعم مميز في الحي الجنوبي من البلدة، وقد طلبت شطائر البرجر التي يتسلل إليها الجبن الأزرق ويميزها الخس ويلاعبها الكاتشب، وقد جلست أتناولها مدعومة بويدجز، بينما كنت مستمتعا بمشروب المطعم الأحمر.

اللون الأحمر، ذلك اللون الذي يميز الكثير من الأمور، ذلك اللون الذي يمثل الدم، ذلك الدم الذي يربطنا ويميزنا ويقسمنا إلى عائلات وأفراد. لكنني أجلس وحيدا، أعيش وحيدا، لا أجد من يساعدني ومن يقلل من وطأة البياض الذي تسلل إلى شعري.

"اسمح لي بأن أكون فرحتك، خذ كل عواطفي، أنت سعادتي."

لا يمكنني أن أنسي كلماتها العذبة رغم تقلباتها المزاجية التي كانت تؤرقني، لكن العذوبة كانت موجودة بين الحين والآخر، فكانت أمطار الحب تهطل بلا توقف وكانت مأساوية الواقع كثيرا ما تبعد بعد أن تتسلل اللمسات الأنيقة إلى الأجواء.

إنها زوجتي الراحلة بكل تأكيد، فقد تسللت الخواطر إلى ذهني فأرهقتني، وبينما كنت مندمجا مع تسلل الأفكار، وجدت فتاة جميلة تتأملني، فاقتربت مني وسألتني عن إمكانية أن تشاركني جلستي لعلنا نأكل سويا بعض الطعام المفعم بالسعرات الفارغة والدهون المميتة.

أخبرتها بأنني قد صرت أتعجب من فتيات هذه الأيام، فقد أصبحت أشعر بأننا لا نعيش في مجتمعنا الذي ولي، لأن ما فعلته الفتاة لم يكن متوقعا في مجتمعنا المعروف بالتقاليد الظاهرة رغم التجاوزات الخفية.

أخبرتني بأنها تشعر بالوحدة، وأنها قد وجدتني أجلس وحدي، فأرادت أن تحاول استجلاب أحوال الدفء والبشاشة بأي شكل من الأشكال.

كان الدمع يحوط عينيها ممتزجا بلون أزرق مبعثر، وكانت حمرة وجهها واضحة بقوة، فأحسست بأنها كانت في حاجة إلى من يحتضنها وأنها قد كانت ذات حساسية عالية، فالكثير من البشر يعانون من الضعف حينما يتعاملون مع أمور الحياة.

وقد خمنت فأصبت فوصلت، فقد تعرضت الفتاة إلى الخيانة من خطيبها اللعين الذي تركها في نهاية المطاف من أجل انحناءات جديدة ونبرة صوت مختلفة ونظرات أكثر إثارة، لكنني كنت على ثقة بأنه سيكتشف الحقيقة في القريب العاجل، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأن كل الفروق تتلاشى في نهاية المطاف، وحينها تصبح الحياة بأكملها أشبه بالكنافة المتداخلة.

ارتميت الفتاة في حضني وأخذت تبكي، وقد شعرت بأنه من الخطأ أن أتجاوب معها، لكنني سرعان ما ساعدتها على تخطي أزمتها، وقد أحسست بملاعبات غريبة، ملاعبات تلاشت حينما غادرت الفتاة ساحتي كاشفة عن رغبتها في العودة إلى منزلها، بعد أن أعلنت عن هويتها وعن كونها طالبة من طالباتي الجديدات، وهو ما أدي إلى مرافقتها إياي بعد ذلك.

-20-

جلست الفتاة تحدثني عن مراهقتها في إحدى المرات، بعد أن أنهيت المحاضرة التي أرهقتني وأصابتني بصداع بسيط.
أخبرتني بأن أباها قد حذرها كثيرا من التعرض إلى الأفلام الإباحية والأخرى المفعمة بالمشاهد الحميمية، حيث أنه قد وضح لها أن التعرض إلى هذه المواد باستمرار قد يؤدي إلى تصرفات غريبة وقد يدفع البعض إلى الانحراف بينما قد يمنع البعض الآخر منه، وفقا للكثير من الظروف والعوامل وطبيعة الشخصية نفسها.

تابعت كلماتها موضحة أن العواطف عبء كبير على الإنسان، وأن مشكلة التجربة بأكملها تكمن في العاطفة، فإن حاول الإنسان أن يتجاهل عواطفه، أصابه الفتور والكبت، وإن جاراها وسايرها، أصابه التوتر ونالت منه الأفكار، لكنها سرعان ما نبهت إلى حقيقة أن الحياة تحتاج إلى المرونة، تلك المرونة التي تساعد الجميع على التقدم إلى الأمام.

ناولتها كيكة الجزر اللذيذة مدعومة بمشروب ساخن مثلت القهوة أساسه ممزوجة بلبن كامل الدسم ومزينة بكراميل لاعبها فمنحها رونقا. وقد حصلت على المثل، وجلسنا نتشارك الحديث سويا بينما كانت أجواء الرقة والأناقة تحوطنا.

كانت أشبه بجين سيبيرج بينما كنت لا أحمل أي تشابها مع بلمندو، وقد شعرت بأن رقتها قد ألقت بها في الجحيم، ذلك الجحيم الدنيوي الذي يلتهم كل الضعفاء وكل من يدعي القوة بينما ترقد الهشاشة بداخله.

لقد أخبرتني عن الكثير من الأمور الشخصية، وقد اعتبرتني في منزلة أبيها، لكنني سرعان ما نبهتها إلى حقيقة أن كل مرحلة في عمر الإنسان تشكل أزمة بالنسبة إليه، حيث أنه مطالب بأن يتعامل مع كل مرحلة بخبرة وتعلم وأن يتجاوزها بقوة وصمود، وإلا أصابه الركود ولم يتحرك من محله.

أخبرتها بأن العقل يشعر الكثيرين باستمرار بأن هناك أشخاصا يرغبون في سقوطهم ونزولهم إلى الوحل، رغم أن الكثير من هذه الإحساسات قد لا تمثل سوي صراعات داخلية مع نقاط نفسية تمثل الركود والكسل.

فقد وضحت لها أن التجربة داخلية قبل كل شيء، وأن العقل يرغب في الرؤية والترجمة، مما يدفعه إلى اختيار عناصر أو أشخاص أو أماكن بصورة ما ويبدأ في التصرف تجاه ما يتم اختياره، كمحاولة منه نحو الترجمة وإيجاد الخلاص للعواطف التي ترغب في التحرر بأي شكل من الأشكال.

ذهلت الفتاة لما سمعت وشكرتني كاشفة عن ود وابتهاج، وقد أخبرتها بأن الاستفزازية التي تمثل السياق، من الممكن تطوٍيعها والتقليل من وطأتها عبر محاولات التناغم والاجتماعية الدافئة مع عدد بسيط من الأفراد المخلصين حقا، لأن التجربة اجتماعية قبل كل شيء، لكنها لا تمثل سوي الذاتية والعزلة في نهاية المطاف.

انتهت جلستنا بعد حديث مطول تطرق إلى الكثير من النقاط الأخرى وسعي نحو كشف العديد من الأمور الخفية التي تلاعبنا بين الحين والآخر.

-21-

عندما تتأمل الضحكة، ستجد أنها محاولة خالصة تهدف إلى تقليل التوتر وتحرير الإندورفينز بل وتقليل الألم بصورة مؤقتة أيضا.

إن الضحك يتصل بالتجربة الاجتماعية، فعندما يتحدث أحدهم بكثرة، من الممكن أن نشعره بالقبول والرغبة في تلقي المزيد عبر ضحكة أو ابتسامة بسيطة، نعم، الأمر بهذه السهولة، فالضحك المتزن قد يكون مفتاحا للكثير من النقاشات والجلسات الاجتماعية.

جلست مع طلابي وطالباتي، جلسنا نضحك، نضحك كثيرا، نضحك قليلا، نضحك كثيرا، نضحك قليلا، وهكذا، كانت الضحكات تتعالى في عنان السماء، وكانت طالبتي المميزة تتأملني كاشفة عن إعجاب، إعجاب بأستاذها الخلاب.

اعتدلت الفتاة وغادرت مكانها، وبينما كانت تنمق ملابسها، ظهر جزء من صدرها، فأحسست بأنني بيرف لعين أو منحرف كبير، لكنني سرعان ما غضضت بصري، بعد أن تسللت قشعريرة مثيرة إلى أنحاء جسدي وفي اتجاه قلبي، رغم كبر سني.

لحقت بها وعرضت عليها أن تشاركني الطعام في أحد المطاعم المميزة، على أن نتبادل الكلمات محاولين التخلص من الشتات، فوافقت في ثبات ولازمتني دون هروب.

كان الطعام رائعا، وكانت الموسيقى التي تحوطنا مدهشة، فانخرطنا في بيئة مفعمة بالدفء والسكون، رغم كثرة الأفكار المتضاربة، فربما ينعم المرء في بعض الأحيان بدفء فوق السطح رغم كثرة الضجيج في الدور السفلي.

لكن الضجيج قد لا يفارقنا إلا بالرحيل، وفي الكثير من الأحيان قد لا نشعر به عند الانتشاء، لكن الانتشاء وهم كبير نسايره في الكثير من اللحظات بهدف المرور، ورغم ذلك يبقى المرور بمثابة الحل الأمثل حينما نتكلم عن شئون الحياة، فالحياة تحتاج إلى الانتقال والتجاوز والعمل على تثبيت القواعد خوفا من الانفجار في أي لحظة، لكن الانفجار لا مهرب منه مهما مرت العقود، ولا يمكنني أن أنسى بيتا من أبيات شعر جرير، حينما قال:

أري مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال

ورغم ذلك من الضروري أن نشكر الإله، فلولا الشكر ما تقدمنا إلى الأمام، فلا تعمد إلى التراجيدية باستمرار، واسعد بأيام الحياة، ولا تكن شكايا لعينا، فاللحظات الخلابة من الممكن الحصول عليها باستمرار، عبر إضاءة أنوار الحياة والاستمتاع بالملذات، وربما عبر الاكتفاء.

في حديث شريف صحيح طويل، يوجد وصف صريح لرجال ونساء في حالة تامة من العري يحوطهم الجحيم ويأتيهم اللهب من أسفلهم، وهو ما يرتبط بكل من صمم على ممارسة الزنا الحقيقي دون عودة إلى طريق الإله.

جلست أقرأ هذا الحديث وتطرقت إلى العديد من الأحاديث الأخرى التي كشفت عن الكثير من الأمور، وقد انتقلت بعد ذلك إلى كتاب يتحدث عن الفن وآخر يتحدث عن السينما.

كان كتابا فنيا رائعا، فقد تطرق إلى فان جوخ وكارافاجيو ومونيه ومانيه وديجا وسيزان وبيكاسو وكاهلو ودا فينشي ودالي وجويا وغيرهم، وهو ما جعلني أشعر بأنني أمام موسوعة فنية عظيمة وجب الاحتفاظ بها والحفاظ عليها كما هي.

أما الكتاب السينمائي، فقد كان بمثابة الموسوعة التي أرخت للعديد من الأفلام التي أنتجت في السبعينيات، وقد تطرق إلى القيامة الآن والأب الروحي وغيرهما من الأفلام التي مثلت هذه الحقبة الزمنية الذهبية.

غادرت منزلي محاطا بخليط معرفي هائل، فقد جمع عقلي بين الدين والفن والسينما، وكان من الضروري أن أخبر نفسي بأن الدين أصل كل شيء، إذ إنه يرتبط بالفن أيضا، بالفن اللائق، بل ويمثل أساسه.

ركبت سيارتي واتجهت إلى مطعم صغير في وسط المدينة، وقد طلبت فطارا شهيا لعله يساعدني في التخلص من ضجيج عقلي الذي ظهر على الساحة بغتة دون سابقة إنذار.

بيض طازج يجاوره جبن أبيض تحوطه شرائح طماطم مميزة يزينها فلفل أسود، أما الخبز، فإن رائحته تلاعبني، والقهوة، فإن الاشتياق إلى مذاقها يتسلل إلي كياني.

وقد وجدت طالبتي المميزة تقف أمامي، فسعدت بأنها قد ظهرت على الساحة لعلها تساعدني على التخلص من صراعات أفكاري، فلطالما كانت الأحاديث البشرية بمثابة المنفث لاضطرابات الدواخل وكثيرا ما كنا نعمد إليها بهدف تمرير الوقت بسهولة ويسر.

-23-

جاءني في منامي رجل غريب، رجل أخبرني بأن النهاية قد اقتربت، حوطني بالكثير من الذكريات التي جرحتني، أحضر إلى ذهني ومضات من الماضي الذي ولي، سمح للأفكار بأن تتسلل إلي كياني فتنال مني، وأصر على استحضار ذكريات الماضي التي خصت فتياتي.

يلعب كل رجل دور الفرد الذي تعرف إلى الكثيرات، حتى لو لم يتعرف إلى أي امرأة، نعم، فإن ذلك يدعم إحساسه الذكوري، لكن الغريب في الأمر هو أن الذكريات تتحول في نهاية المطاف إلى ما يشبه الأفلام، لدرجة أنه من الممكن للمرء أن يشعر بأن فتاته التي تعرف إليها لم تكن سوي ممثلة قد ظهرت في أحد الأفلام التي شاهدها، لأن العواطف تكون قد فقدت والمشاهد تكون قد أحيطت بالضباب الذي قضي على معظم ملامحها.

هكذا أخبرني مانحا إياي الكثير من النصائح الأخرى، وضح لي أن كل النساء بمثابة امرأة واحدة، لأن التجربة داخلية قبل أن تكون خارجية، فهناك كلمات تريد أن تخرج وعواطف تريد أن تحرر، لا أكثر ولا أقل، لكنه سرعان ما وضح حقيقة أن هناك بعض الاختلافات وأنها اختلافات ظاهرة في البدايات، اختلافات تتلاشي مع الوقت ليدرك المرء الحقيقة وليتعرف إلى الوهم الذي أقحمه شيطانه بين حوافه.

كان يحتسي قهوة غريبة، وكان يتأملني كاشفا عن وعيد مخلوط بطيبة، فأخبرته بأنني عاجز عن تحديد عواطفي فيما

يخص شأنه، فوضح لي أنه من الطبيعي أن يتحرك المرء محاطا بعواطف مختلطة ترهقه وتنهكه على مدار الأيام.

أخبرني بأن المأزق بأكمله يكمن في كون التجربة عاطفية من الدرجة الأولي، وقد وضح لي أن المأزق الأكبر يكمن في محاولة تجاهل الحقيقة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأنه لا مناص من أن يعيش الإنسان مقياس العواطف بأكمله، فيتعرض إلى كل شيء ويشعر بكل إحساس.

-24-

استيقظت من نومي مفزوعا، أحسست بأنني كنت أتحدث إلى نفسي، شعرت بأن هناك ما يخفي، وعدت إلى النوم مجددا، فزارني كل ما هو غريب.

رجال كثيرون يتحركون باستمرار، ينزلون سلما دون استقرار، يحاولون الوصول إلى شيء غير مفهوم، شيء تكمن لذته في السعي إليه لا في الوصول، يجلس معهم رجل غريب، يقدم إليهم كلاما معسولا وينصت إلى معاناتهم متكلما على المكشوف، فيتحدث بصراحة وبلا مواربة معبرا عن الحقيقة الجارحة.

حجارة مركوم بعضها فوق بعض على رؤوسها، رجل وجم يجلس بينها ويتأملني محاطا بحمام جميل. جزل الحمام ونال الاختلاج من الموقف، فتسلل إلي كياني كل ما هو غير معلوم.

وقد نزل من نزل، وصعد من صعد، وانتهت القصة في لمح البصر!

-تمت-

توضيح

الأفكار المعروضة تخص الشخصيات وحدها وعالم الخيال وبيئة التضخيم من شأن القوالب الأولية، وهو الحال نفسه بالنسبة إلى أعمال الكاتب الروائية القصيرة الأخرى (الفيلسوف الذي قتل قطته – الدوغمائي ذو اللحية الحمراء – نباح الكلاب في الباحة الخلفية)

تأملات في (الفيلسوف الذي قتل قطته)

يمثل هذا العمل رصدا واقعيا للنشاط الجنساني في المجتمع المحافظ، ويدحض التعميم بصورة واضحة، فيقسم النشاط إلى قسمين ويعمد إلى التأكيد على كون الغريزة محركة للبشر دون أن يربطها بالحضور الدائم في الذهن التقليدي.

في الحقيقة، من الضروري أن أشير إلى أن الفتاة التي تلعب دور القطة تعاني من Nymphomania، لكنها رغم ذلك تحاول أن تظهر العواطف النقية بين الحين والآخر، وهو ما يظهر على هيئة مدح واضح للأحضان والقبلات الخفيفة والملاعبات الحوارية المتعددة.

كما أنها تتمتع بحس فكاهي ساخر، فتخبرنا بأن الفلاحين يمارسون الفحشاء بدلا من العمل، وتتحدث عن الرجال بصورة غريبة، لكنها في نفس الوقت تظهر أطيافا عديدة من أطياف النفس الأنثوية التقليدية، فنجدها متأملة لملامح جسدها، متحدثة عن عقبات الزواج وصراعات البحث عن الشريك، ورغم ذلك من الممكن أن نلاحظ تلك اللهجة اللاذعة المبنية على النقد الدائم الذي تعمد إليه بصورة قوية.

إنها تخبرنا بأن هناك كاتبا يؤكد على أن الجنس بمثابة المحرك الرئيسي للبشر المعروفين بعواطفهم العميقة، وهو أمر يجب تفهمه حيث أنه من المعروف أن الحميمية بمثابة التعبير الأخير أو الأقصى عن العواطف البشرية، ولهذا كثيرا ما ينصح بأن يحاول المرء أن يحوط عواطفه باتزان واضح وأن يوظفها تدريجيا ضمن بيئة محددة ذات خطوات واضحة.

إن الكثيرين ممن تنكسر قلوبهم ويفشلون في العلاقات العاطفية المنظمة، يعمدون إلى السلوكيات غير السوية، وهو ما يؤكده العمل وتؤكده الفتاة مظهرة حالة واضحة من الندم واضطرابات الضمير.

إن الفيلسوف لم يوجد قط في هذا العمل، فالشخصية الوحيدة الحقيقية الموجودة في هذا العمل تتمثل في الفتاة، نعم، الفتاة وحدها.

ترقد بداخل المغطس، تتذكر الكثير من الأشياء بينما تعمد إلى الممارسة الفردية التي يتوجها انفجار القنبلة النووية في البداية، لتشرع الأفكار في التدرج والتسلل.

تحوط كل شيء بالحماقة، فتسب التدخين وتصبغ الخمرة بصبغة اللعنة وتصف السلوكيات الجنسية المنحرفة بالهراء والعبث، لكنها قادرة على تقبل الخطأ البشري وإدراكه.

إن الفيلسوف يمثل الجزء الذكوري بداخلها (الأنيموس)، ذلك الجزء الذي نال منه العطب والعجز بعد أن خرجت من علاقات كثيرة فاشلة مع ذكور لم يظهروا سوي رغبة جنسية محضة كانت تتخفي وراء عواطف خداعة. ولكنهم رغم ذلك أشعلوا رغبتها الجنسية بقوة، وهو ما خلق عندها حالة من التناقض، فصارت راغبة بقوة في المتعة الجنسية، خافية ذلك وراء ستار العواطف العذرية، لكنها علي علم بأن الحميمية بمثابة التعبير الأقصى عن العواطف في نفس الوقت.

إن الفتاة تظهر بوضوح رغبتها في الحصول على شاب يافع يشعل حماستها، شاب يمثل الشاب الرائع القادر على تعويضها عما عانته في علاقاتها العاطفية السابقة، تلك العلاقات التي تركتها وحيدة في شقتها في نهاية المطاف.

إن نفس الفتاة منكسرة مضطربة، نفس تتحرك بداخلها رغبة واضحة في الحفاظ على توبتها، حيث أنها قد انخرطت في البدايات في علاقات عاطفية، لكنها سرعان ما أدت إلى أمور جنسية، وهو ما يمثل الأمر المتوقع حينما تتحرك العلاقات بعيدا عن العائلات في المجتمعات المحافظة، دون تعميم على الجانبين.

إن العمل يتقبل الخطأ البشري لكنه يدعو إلى التقليل من الأخطاء حتى يكون الانتقال سهلا والأمر أكثر أمانا، لأن رحمة الإله واسعة وعذابه شديد أيضا.

من الضروري أن أشير إلى أن الفيلسوف يعبر عن الجزء النفسي الذي يمنعها من الانخراط في علاقة جديدة، لأنها قد أصيبت بالتعقيد والاضطراب بعد فشل كل علاقاتها السابقة، وفي نفس الوقت من المهم أن أوضح أنها تعاني من تدهور ذهني بسبب الندم الذي تنخرط فيه رغم علمها بحقيقته وبحقيقة أن الإنسان قادر علي التقدم إلى الأمام والتخلص من كل ما لا يفيد.

إن الفتاة لم تغادر المغطس منذ البداية، وكل ما حدث بالقصة يمثل خيالات جنسية وفكرية تسللت إلى ذهنها بلا هوادة. ورغم ذلك من الضروري أن أشير إلى حقيقة أن المغادرة قد تمت في النهاية حينما انتحرت وقفزت من الشرفة.

أما الفيلسوف الذي رأته في الجحيم، فإنه يمثل تلاشي العائق النفسي بعد أن نال منها وأصابها بتدهور ذهني رهيب أدي إلى انتحارها في نهاية المطاف.

من الضروري أن أشير إلى أن الفتاة تعاني من Misandry، فتصف الذكور بالفاحشين المنحرفين الفاسقين بصورة دائمة وتري أن فسقهم قد نال منها وأدي إلى إرهاقها على المستوي النفسي والعقلي. كما أنها تري أن الأتقياء هم من يتعرفون على جسد أنثوي واحد، متجاهلة حقيقة أنه من الممكن للرجل أن يتزوج رسميا أكثر من امرأة واحدة، وهو ما يمثل إشارة واضحة إلى حقيقة أن المرأة في مجتمعنا تنظر إلى الرجل على أنه شهواني وغير سوي إذا رغب في المزيد، حتى وإن كان وفقا للشرع، لكن هذه النقطة تمثل عنصرا تقليديا من العناصر التقليدية الأخرى القابعة في عقليتها، رغم فكرها الغربي الظاهر، ذلك الفكر الذي دخل في صراع شرس مع خلفيتها الدينية المتأصلة الكامنة في الخلفية الخفية الخاصة بعقلها.

إنها تكره الرجال بشدة وتقلل من إمكانياتهم الجسدية والجنسية، فتخبرنا بأن قدراتهم منخفضة وأنهم لا يمثلون سوي مادة محسوسة دونية، وهو ما يظهر بوضوح عبر الكثير من الكلمات التي يقدمها العمل.

تري أنهم يزورون المواخير ويعمدون إلى الهروب باستمرار، وفي نفس الوقت نجد أنها تعاني من مشكلة نفسية تخص الحشيش والخمور، وهو ما يرتبط بتجاربها مع شبان كانوا يسيرون في طريق غير سوي.

إن هذه الفتاة تظهر تربية دينية في الخلفية، وهو ما أدي إلى اضطرابها بهذه الصورة، فبعد أن أقدمت على ما فعلت وبعد أن جلست تتأمل أفعالها، نالت الصدمة منها، ورغم ذلك من الضروري أن أشير إلى أن الأمر لا يرتبط بالدين فقط بل وبالمجتمع وبالذاتية وبمدي احترام الإنسان لنفسه، ولهذا من الممكن أن يتعرض الجميع إلى ما تعرضت الفتاة إليه من اضطراب خلجات وأفكار مرهقة.

لكن من الضروري أن أشير إلى أن الانتحار ناجم عن اكتئاب تعاني منه البطلة، وهو اكتئاب ربما تلعب الجينات دورا فيه، وربما تمثل علاقاتها الفاشلة أمرا أساسيا في الإقدام عليه.

فعندما تعجز الفتاة المفعمة بالعواطف الراغبة في الحميمية (بعد أن أشعلت بقوة) عن إيجاد شريك الحياة اللائق، قد تصاب بحالة دائمة من الحزن، ومع عوامل مختلفة وبيئة محددة، قد يصيبها تدهور نفسي واضح، خاصة حينما نتحدث عن العصر الذي نعيش فيه، ذلك العصر الذي لم يعد يعمد إلي الحجب بل أصبح منفتحا بصورة قوية.

خيالات جنسية تراودها باستمرار، وإدمان واضح للممارسة الفردية Solo Sex، وحالة من التخبط تعيشها هذه الفتاة، لكن الغريب في الأمر هو أنها قد أظهرت ميلا تجاه الإناث في أكثر من موضع، حينما زارت ستاربكس وأحست بشيء ما لكنها سرعان ما هربت، وحينما أخذت تتأمل جمال الممثلة الأوكرانية ووصفتها باللذيذة، ورغم ذلك من الممكن أن تدرج هذه النشاطات تحت السلوك الطبيعي دون مبالغة أو أفكار لا قيمة لها.

تتحدث الفتاة عن أهمية العواطف ورغبتها فيها وتقلل من شأن الجنس في أكثر من موضع، لكنها رغم ذلك تعاني من هوس جنسي واضح، وهو ما لا تفهمه وتعجز عن إرضائه، بينما تكبلها ثقافة المجتمع التي تخبرها بأنه من الضروري للفتاة أن تظهر البراءة والحب العذري دون تطرق إلى الأمور الأخرى.

رغم ثقافتها ونضجها الفكري، إلا إنها قد عجزت عن توظيف عواطفها في الإطار اللائق، وهو ما أدي إلى كرهها للرجال، وربما يكون هذا الأمر بمثابة نصيبها، فالتقاء الأحبة أمر يتحكم فيه القدر كما يتحكم في كل شيء بكل تأكيد.

إنها تحدث الأنيموس الخاص بها، ذلك الأنيموس الذي يتخذ من الفيلسوف هيئة له، وفي نفس الوقت، فإنه من المهم أن أشير إلى حقيقة أن الأفكار الناجمة عنه تمثل خليطا من الأفكار التي تعرضت إليها مع عشاقها الذين خدعوها ولم يظهروا احتراما للوعد، وقد كان من بينهم من يحملون ثقافة تضاهي ثقافتها وربما تتفوق عليها، رغم طيشهم. وربما تمثل الأفكار الناجمة عن الأنيموس أفكارها الخاصة في بعض الأحيان، كنتيجة لعقليتها الفوضوية الواضحة. ومن الضروري أن أشير إلى حقيقة أن هناك شخصا قد أثر فيها بقوة، وهو أول من تعرفت إليه على ما يبدو، ذلك الشخص الذي أفقدها براءتها وتفوق على معرفتها، وارتبطت الخصائص الواضحة والسمات الظاهرة بشخصيته.

قد يدعي أحدهم الفضيلة، فيدعونا إليها بينما يمارس الرزيلة، وهو أمر محزن بكل تأكيد، لكن هذه الفتاة تخبرنا بأنها ليست بفاضلة وتوضح أنها في الطريق إلى أن تحقق ذلك عبر الاعتراف بالخطأ والعمل على عدم تكراره، وفي نفس الوقت

تلعب دور الناصحة، فتتقدم النصح إلى نفسها وإلى الفتيات وإلى الذكور بشكل رئيسي، رغم اضطراب مشاعرها تجاههم.

إن زوجة الفيلسوف تمثل الفتيات الأساسيات في حيوات الذكور الذين تلاعبوا بها وبمشاعرها، وهو ما يمثل التوتر والتشاحن بين الفتيات من أجل الحصول على الشريك في نهاية المطاف.

بالطبع، إنني علي علم بأن الأعمال بها مشاهد دافئة بين الحين والآخر، لكنني في حقيقة الأمر أقوم بدور الكاتب الموضوعي أو المخرج الواقعي، حيث أنني أحاول رصد الصورة بشكل كامل، لا أكثر ولا أقل.

أما التوصيفات الشديدة، فقد حصلت عليها اعتمادا على بعد ديني متصل بالنصوص، وفي نفس الوقت أكدت على حقيقة أن كل ما يرد في العمل يخص الشخصيات وحدها وأفكارها، وهو ما يؤكد حقيقة أننا أمام Fiction واضح، حتى لو كان راصدا للواقع، لأنه يرصده بصورة سريالية مبنية على الكثير من الأفكار المبعثرة.

الزمان والمكان غير واضحين والسرد عشوائي في الكثير من الفقرات، لأن الفيلسوف ليس بموجود في الحقيقة كما قلت مسبقا، وهو ما يمثل محاولة لتحليل الشخصية الأنثوية التي تمثلها الفتاة بصورة نفسية قد ترتبط ب Psychoanalysis بشكل واضح.

إن وجود نفس منكسرة في أعمالي المتواضعة قد يضايق بعض القراء، قد يستفز العقليات بنوعيها، لكنني أعمد في حياتي إلى

موضوعية خالصة حتى مع نفسي، فلا أمتدحها إلا إذا استحقت و لا أحب أن أشكر فيها إلا قليلا، لعلها لا تمثل عبئا على بأي شكل من الأشكال وكي لا تمنعني من الوصول إلى ما يجب الوصول إليه. كما أنني لا أتخذ وضعا هجوميا أو دفاعيا بأي شكل من الأشكال، لكنني أحاول أن أشكل بيئة تناسب المتلقي وتحاول إقناعه.

إن القطة على علم بالكثير من الأمور فيما يخص دراسات ال Sexuality، وهو ما يظهر بوضوح، ومن المهم أن أشير إلى حقيقة أنها لم تبين نقطة محورية فيما يخص استدعاء المخ للتجارب الجنسية، حيث أنه كان من الواجب عليها أن تبين أن عملية الاستدعاء تصبح ضبابية بعد مرور وقت طويل، لكنها بينت في أكثر من موضع حقيقة أن أكثر العلامات المميزة لهذه الهيئات تتمثل في تذكر لون الملابس أو ماركتها، رغم أنها قد تمكنت من تذكر بعض السلوكيات أو النشاطات الحسية.

من المعروف على المستوي العلمي حقيقة أن المخ البشري يرمي الكثير من الأمور ويتخلص منها مع الوقت، حتى الذكريات العذبة قد يرميها و لا يبقي منها سوي الفتات، لعله يتقبل معرفة جديدة ويسجل مشاهدا أكثر حداثة. ورغم ذلك من الممكن لبعض الترسيبات والأمور المتعلقة بال Trauma أن تبقي في العقل اللاواعي، أما العقل الباطن فإنه يتأثر بما حدث منذ وقت قريب.

إن تأكيد أعمالي على الرحمة نابع من حقيقة أنها تهدف إلى الوصول إلى الفريقين، ولهذا من الضروري أن تناسب الجميع،

لكن تأكيداتي ليست بعمياء، فالرحمة بيد الله والعذاب بيد الله، والله يرحم من يشاء ويعذب من يشاء وبيده الأمر كله، ولهذا من الضروري أن نسعى في طريق الإله وأن نقلل من الأخطاء وأن نؤكد على الثوابت التي تظهر لنا الفرق بين الحلال والحرام.

قد تتعجب عزيزي القارئ من تطرقي إلى الكثير من الأمور التي تخص ال Sexuality، خاصة في كتابي "الإيروسية والثاناتوسية"، لكنني قد درست جزءا كبيرا جدا فيما يخص هذا المجال وقد عمدت إلي مراجع رائعة تم تدريسها في الخارج، ورغم ذلك من المهم أن أشير إلى حقيقة أن هناك الكثير من التفاصيل في هذه المراجع، ولهذا حاولت أن أعمد إلى الخلاصة.

وقد حاولت أن أقدم هذه المعرفة الغربية على لسان شخصياتي، مدعومة بتحليل وأفكار عديدة نابعة من خيال ذهني الخالص، فقدمت شخصيات علي علم بأمور الجنسانية ومزجت بين هذه الهيئة والبيئة الدينية التي نعيش فيها، وقد تمكنت من توليد شعور الندم عند الشخصيات عبر العمد إلى مفهوم المخالفة ثم التوبة.

إن المشاعر التي تظهرها هذه الشخصيات مشاعر موجودة بين الكثير من الشباب، لكنها لم تترجم من قبل إلى كلمات، فعاشوا الاضطراب ورحلوا إلى عالم آخر في صمت.

أما حال هذه الفتاة، فإنه موجود في مجتمعنا دون تعميم، حيث يعدها الشاب بالخطوبة والزواج، يخبرها بأنه يحبها، ويقدمان معا على فعل أمور حميمية، ثم يرحل، لأنه يكون وقتها في فترة

الكلية أو قبل ذلك على سبيل المثال، مما يجعله غير مستعد للإقدام على أي فعل رسمي.

إن الخطأ الذكوري لا يختلف عن الخطأ الأنثوي، والتوبة موجودة، والرحمة واسعة والعقاب شديد، لكن من الضروري أن أشير إلى حقيقة أن التأثيرات النفسية على الفتاة مضاعفة ومدمرة، فالرجل أكثر قدرة على المرور والتجاوز.

ومن المهم أن أشير إلى حقيقة أن الأمر بأكمله بمثابة الخدعة، لكنه رغم ذلك من الضروري أن يعاش لأنها طبيعة الخلقة والجسد والنفس، ولهذا من المهم أن يبحث الإنسان عن الشريك مشمولا بحكمة ووعي، وأن يدرك حقيقة أن الانخراط في الحميمية المشيدة للروابط القوية والتوثيقية الدافئة، أمر سهل الاشتعال إذا لم تنظم العواطف.

قد يتعجب الكثيرون ممن يعيشون الحياة التقليدية من كتاباتي، وقد ينظرون إلى الأمر على أنه خدعة، وأن مسئوليات الحياة مرهقة وأن الارتباط صراع شرس ممتع في البدايات مسبب للكثير من الاضطرابات فيما بعد، لكنني في الحقيقة لم أقل سوي ذلك، وقد بينت في أكثر من مرة أن الكتابة التراجيدية تستدعي التضخيم والكتابة التي تهدف إلى ترجمة ما يدور بالعقول تستعدي التعظيم، وهو ما يمثل أمرا معلوما وظاهرا، لأنني قد وضحت فيما مضي أن العقل يتجاوز كل شيء ويتكيف ويمر بسرعة دون وقوف، لأنه إذا وقف، أصابه العطب وهلك.

إن كتاباتي لا تقف عند الأخطاء ولا تسعي نحو ذلك، لكنها ترصدا قصصا لا أكثر ولا أقل، ترصد قصصا تحمل عناصرا

كثيرة متشابهة بصورة واضحة، ولهذا فإنه من الممكن أن أحصل على استراحة بسيطة لعلني أتمكن من الوصول إلى أفكار جديدة تمكنني من تقديم أعمال أكثر تنوعا.

ومن الضروري أن أوضح حقيقة أنني قد بينت في نهاية العمل السابق أن البشر منهم من يمارس مقدمات الزنا ومنهم من يتجاوزها، ومن المهم أن أشير إلى أن هذه الكلمات بمثابة التفسير لحديث نبوي شريف، لأن هناك حديثا نبويا يوضح أن الجميع قد كتب عليهم الانخراط في مقدمات الزنا، وأن منهم من يزني بشكل حقيقي عبر عملية الولوج، أي عبر التقاء العضوين الجنسيين، وهو ما يمثل جريمة كبيرة يجب التخلص منها بسرعة.

إن المشاهد الحميمية في الأُفلام والمسلسلات التي تشاهد، تمثل مقدمات للزنا على سبيل المثال، ولهذا من الضروري أن أشير إلى حقيقة أنني لم أهاجم أحدا، وأنني قد عرضت الحقيقة ضمن صياغة مختلفة ومتواضعة لا أكثر ولا أقل. ولهذا يدعونا الدين إلي الاستغفار والابتعاد عن الكبائر والعمل على السعي في طريق الإله.

في إحدى الفقرات، نجد الفتاة تتحدث عن رغبتها في مناوشات الخطوبة والزواج وملاعبات بئر السلم وغيرها من الأمور، ومن الضروري أن أشير إلى حقيقة أن هذه الفقرة مشمولة بحالة من الضحك والسخرية، لا أكثر ولا أقل، لأن الشخصية الأنثوية بالعمل تعمد إلى الملاعبات الجنسية والغريزة بشكل عام كوسيلة للسخرية والضحك، وهو ما يرتبط بالثقافة الأمريكية

وتأثرها بها. وهو ما يظهر أيضا في حقيقة أنها تنظر إلى الذكر على أنه قضيب لا أكثر ولا أقل.

ومن المهم أن أشير إلى حقيقة أن مشهد العربدة الجماعية يتحدث عن حقيقة أن هناك قلة فقط هي التي تمكنت من الوصول إلى التقوى مع عدم القدرة على الهروب من اللمم، وهو أمر حقيقي، لأنه من المعروف أن النصوص الدينية قد بينت لنا حقيقة أن الأتقياء قلة في أكثر من مرة.

أما الموضع الذي يصل إلى القمة عبر وصف رجال يعملون على زيارة المواخير متحدثا عن حقيقة أن الحكمة لا ينالها سوي البعض وأنها نعمة كبيرة تمكننا من الوصول إلى بر الأمان، فإنه موضع مهم للغاية، لأن النص الديني يخبرنا بأن من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، ولهذا فإنه موضع يحاول أن يرجع إلى النص وأن يؤكد عليه.

إن الفتاة تدعو إلى الروحانية لأنها ضحية المادية، ضحية العلاقات التي أنهكتها، ضحية التكالب، ضحية الصراع دون تأني والإقبال دون رشد والتسرع دون حكمة.

إن العمل يعبر بوضوح عن النفس المضطربة المنكسرة الخاصة بالمراهقة التي نال منها الاكتئاب وأرهقها. وهو في نفس الوقت يعبر عن توتر خلجاتها وصراعاتها الدفينة.

إن العمل يحمل لمسة ساخرة وفكاهة خفية مستمدة من الثقافة الغربية التي كثيرا ما تعمد إلى الجنس كوسيلة للضحك، ومن المهم أن أشير إلى حقيقة أن ثقافتنا الإسلامية تنظر إلى الجنس

على أنه الهوى، إذا تم توظيفه خارج الإطار الرسمي، ومن المهلك أن يتبع المرء الهوى وأن يبتعد عن طريق الإله، حيث أن طريق الإله بمثابة المخلص لنا.

أما حالة الركود أو الكآبة الموجودة في العمل، فإنها مستمدة من الشخصية نفسها والحالة النفسية التي تعيشها، فالدين يدعو إلى العمل، لكنه في نفس الوقت يمنح الأولوية للآخرة بقوة، واصفا الدنيا باللهو واللعب.

ولهذا نجد أن الفتاة ترغب في التلاشي والانتقال إلى العالم الآخر بأي شكل من الأشكال كمهرب من صراعاتها الداخلية بدلا من الاعتماد على عناصر الهروب الدنيوية المهلكة، ورغم ذلك من الضروري أن نشير إلى أن فعلتها المرتبطة بالانتحار بمثابة الخطأ، إلا إنها كانت تعاني من حالة نفسية شرسة، مما يجعل الأمر مختلفا بصورة واضحة ويربطه بكيمياء الدماغ وبتصرفات لا يمكن التحكم فيها.

إن نغمة ال Misandry وال Nymphomania وال Psychological Dissonance بمثابة الأمر الواضح والظاهر في هذا العمل، لأن الفتاة تعمد إلي أفكار كثيرة متنافرة ومضطربة، وهو ما يمثل خطرا كبيرا، لأن حالتها قد تشبه حالة الملحد علي سبيل المثال الذي عمل علي التخلص من اعتقاد من أجل اعتقاد آخر، وهو ما يمثل حالة نفسية شرسة، قد يتعرض إليها البعض كنتيجة لعوامل عديدة من بينها البيئة وطريقة التفكير والضغوط بكل تأكيد.

ورغم ذلك، فإنه من الواضح أن الفكر الديني قد انتصر عند الفتاة، وأنها رغم ثقافتها الغربية الواضحة إلا إنها قد تمكنت

من الوقوف عند النقاط الصحيحة، إلا أن المرض النفسي قد أدي بها إلى الانتحار في نهاية المطاف، وهو ما يصعب التحكم فيه بكل تأكيد.

من الضروري أن أوكد على حقيقة أن أعمالي ترصد صراعا بين الغريزة والدين، لكنها تنجح في تحقيق التوافق بين الأمرين عبر التأكيد على عدة نقاط، أهمها، حقيقة أن الدين يمنح الأولية للعالم الآخر بل ويصف من يمنحون الأولوية للحياة الدنيا بالفاسقين في أكثر من موضع، ولكنه يدعو الإنسان إلى أن يأخذ حقه من الدنيا وأن يفرح ويسعد ويعمل دون أن ينسى الآخرة، وفي نفس الوقت يؤكد على أهمية أن توظف الغريزة في المكان الصحيح، وهو ما يظهر حقيقة أنه قد وفر السياق المناسب للتوظيف وعمل على الإشادة به والحث على انتهاجه.

إن الدين يدعو الإنسان إلى أن يعيش وأن يستمتع وفقا لسياق محدد ودون طمع أو تكالب، وهو ما يظهر بوضوح عبر النصوص الدينية، لكنه في نفس الوقت يؤكد على أن الحياة بمثابة الوهم والخيال، وأن اللجوء إلى الإله بمثابة الأساس، ولهذا يتم اختبار البشر بالشر والخير كفتنة.

لقد منح الله عز وجل كل إنسان طاقة نفسية محددة، طاقة تمكنه من الوصول إلى إنجازات ذات هيئة معينة مرتبطة بسياق محدد، وهو ما يؤكد حقيقة أن التكالب لن يساعد على بلوغ ما لا يمكن بلوغه.

في الحقيقة، من الضروري أن ندرك أن عصرنا الذي نعيش فيه لا يساعد على بلوغ الروحانية بسهولة، لأننا نعيش في عالم لا يعرف حجبا، ومع عدم الحجب وعدم التقليل من عناصر الإثارة،

سيكون الأمر معقدا، بل وسيزيد تعقيده كلما تقدمنا إلى الأمام.

فعندما يتم حجب المغريات، يدخل الجسد في حالة خمول، وينشط كل فترة دون إصرار، فيتم السيطرة عليه بسهولة أكبر، وهو ما يؤدي إلى محاولة أن يهدأ وأن يستجلب أحوال السكون التام، أما مع سرعة العصر والإصرار على الكشف، فإن الوضع قد أصبح كارثيا.

إن النفس تعيش وفقا لإطارين، أحدهما هجومي والآخر دفاعي، وعندما تهدأ، قد تتمكن من تحقيق التوزان، لكنها سرعان ما تعود إلى أحد الإطارين من جديد.

ومن المهم أن أشير إلى حقيقة أن التجربة البشرية بمثابة الخلطة، فاللذة المحرمة يتبعها ألم نفسي شديد وتؤدي إلى تراكمات نفسية ناجمة عن طبيعة البيئة والمجتمع، والتقوى قادرة على تحقيق اللذة عبر السياق اللائق، لكنها في نفس الوقت تحتاج إلى مجهود كبير وقتل الفضول، ورغم ذلك، فإنه من المعروف أن الفوز قد اقترن بالأتقياء، الأتقياء فحسب.

تأملات في (فيلسوف وفتاة)

تمثل الفتيات في هذا العمل الروائي القصير الماضي، يمثلن حبيبات الزمان الذي ولي، فالفيلسوف يقابل أشباحا على مدار الطريق، يقابل فتيات الماضي، يتذكر العواطف الجياشة فلا يجدها، يحاول أن يستدعي ما يمكن استدعاءه، ويسعى نحو استعادة أيام شبابه بأي شكل من الأشكال.

أشباح تلاعبه على مدار العمل، أفكار مضطربة تراوده بشكل واضح، نزعة دينية تكمن بداخله، ودونجوانية قتلها الزمان واقترنت بأوهام وسراب تلاطفه.

عندما يتحرك الذكر تاركا احتمالية أن يقابل امرأة جديدة مفتوحة أمامه، يتحرك بقوة، يقبل على الحياة بتكالب، تجده يعيش سعيدا منتظرا احتمالية أن تظهر أمامه امرأة جديدة، نعم، فبمجرد أن يفتح الرجل الباب لاحتماليات جديدة، يشعر بنفسه ويتحرك كوحش جاسر، حتى إن لم تظهر له أي امرأة، وحتى إن اكتفي بزوجته فحسب. فالاحتماليات المفتوحة تنعش الإيروس، أما الدين، فإنه يطالبك بأن تغلق الباب أمام هذه الاحتماليات، ومن هذه النقطة، يبدأ الاختبار، فطوبي لمن كبح نفسه ففاز وأرضي نفسه داخل الإطار الصحي والمناسب، لعله يحصل علي أعلي درجات الجنة في نهاية المطاف، إذا حقق نجاحا موازيا فيما يخص النقاط الأخرى، وإذا أراد اللّٰه عز وجل ذلك برحمته.

لكن الفيلسوف كان ممن يفتحون الباب، ورغم ذلك، فقد تمكن من إغلاقه في نهاية المطاف، ولا شك في حقيقة أن من يغلقه في صغره أقوي ممن يغلقه في كبره وأعلي مكانة.

إن الفيلسوف يعيش أيامه الأخيرة، يعيشها محاولا أن يستعيد لذة الماضي فيعجز، ويتذكر أيام شبابه عبر الحديث مع فتياته الوهميات غير الموجودات في حقيقة الأمر.

ومن الضروري أن أؤكد على حقيقة أن هذا الرجل متأثر بشدة بفتيات الماضي، لدرجة أنهن قد لحقن به في أيام عجزه، وهو ما يؤكد أن المراهقة تؤثر في الشخصية بقوة، ورغم ذلك تبقى الطفولة الأكثر تأثيرا.

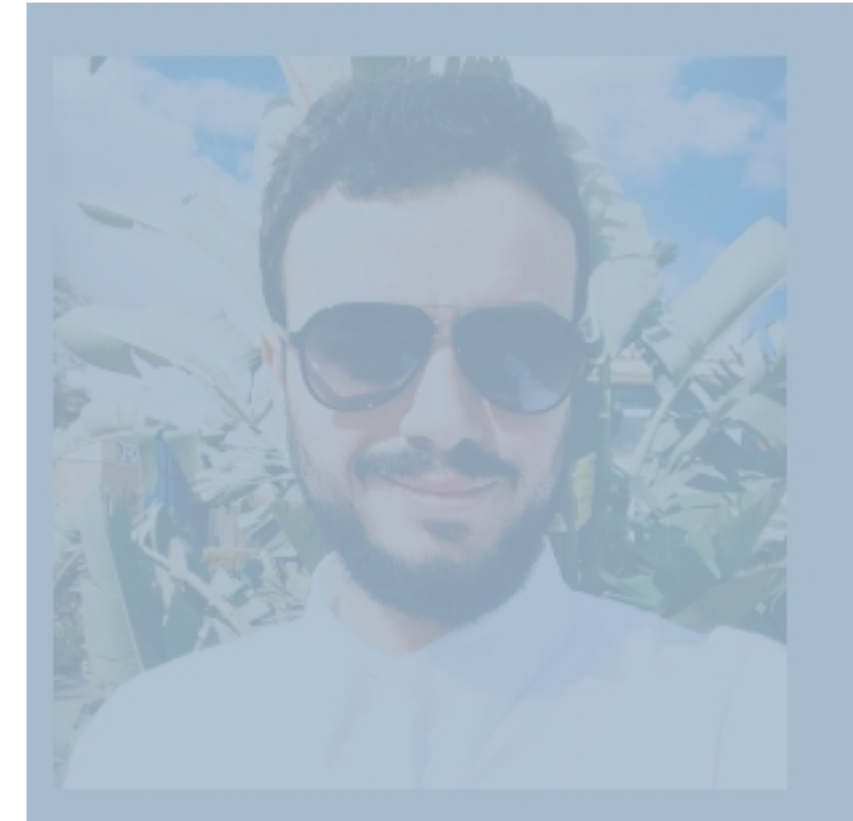
إن تصرفات الشباب المتمردة والعاطفية في المراهقة، من الممكن تقبلها في الكثير من الأحيان، لكن من الضروري ردعها بسرعة في سن مبكرة ومحددة خاصة مع الجيل الجديد، لأن فرص العمل قليلة جدا أو ضعيفة، والجدية قد فقدت وأشكال اللهو قد أصبحت أكثر تعمقا في مجتمعنا العربي، وهو ما يعني أن الأجيال الجديدة قد تصبح معتمدة على اللهو والتخدير حتى الرحيل، وهو ما سيؤدي بدوره إلى تشكيل عائلات ضعيفة خاوية لا تقدم سوي أجيال جديدة أكثر ضعفا وهشاشة.

وبالعودة إلي الفيلسوف، فإن فتيات مراهقته يلاعبن خياله، وزوجته تأتيه بين الحين والآخر، وانتظاره للرحيل أمر واضح. أما المشهد الختامي، فإنني لن أعمد إلى تشريحه، حفاظا على رونق الفكرة ورمزيتها القابعة بين حوافها.



(تم الانتهاء من هذا الكتيب في 30 ساعة وتمت مراجعته مرة واحدة في ساعتين)

دار عرفان للنشر (الأعمال الروائية القصيرة)
مؤسسة معتز عرفان للثقافة والفنون



معتز عرفان

مؤلف وناقد

مؤلف كتاب
"الإيروسية والثاناتوسية"

الحياة البشرية .. ذلك الخليط المتضارب من المشاعر والعواطف الإنسانية .. ذلك التوتر الوجودي الذي لا مهرب منه .. ذلك الوهم الذي لا بد من القضاء عليه .. ذلك الجسر الذي يؤدي إلى عالم الخلاص .. كل هذا تحت مجهر فيلسوف جلس في أحد الأيام ليتأمل الغزلان ، غزلان الماضي كما يطلق عليها في حقيقة الأمر.

دار عرفان للنشر